عبد اللطيف وهبي

رائحة الأركان



رائحة الأركان

عبد اللطيف وهبي

كتاب رائحة الأركان.. شباب تارودانت الشمالية:
لا طريق في الأرض ولا طريق في السماء

– مايو 2019 07

اختلف الكثيرون حول حدود سوس، فالبعض اعتبر حديث الناس باللغة الأمازيغية هي التي ترسم المعالم الجغرافية لسوس، والبعض الآخر حددها بدءا من السفوح الجنوبية للأطلس الكبير.

بيني وبين سوس علاقة وطيدة لا يمكن وصفها، امتدت من الولادة ثم الطفولة والمراهقة وحتى اليوم، لا أزال أسير عبقها الأركاني، مرورا بفترة انتقالي من سوس إلى الرباط لإتمام دراستي العليا. أعود تارة، وتارة أخرى تجرفني تفاصيل الحياة بالعاصمة، ومازلت كلما عدت إلى سوس، أشعر بأنني أستلهم من جبالها إكسير الحياة، فالله خلقني وسوس صنعتني ورسمت أخلاقي.

اختلف الكثيرون حول حدود سوس، فالبعض اعتبر حديث الناس باللغة الأمازيغية هي التي ترسم المعالم الجغرافية لسوس، والبعض الآخر حددها بدءا من السفوح الجنوبية للأطلس الكبير، بجانب « جبل سروى »، لتتجه نحو الجنوب، ثم ترافق مجرى وادي درعة إلى حدود واد نون، غير أن أحدا لا يعلم هل سمي النهر الكبير واد سوس باسم المنطقة أم أن هذه الأخيرة هي التي سميت باسم هذا الوادي. ولكن سوس ستظل سلة المنتجات الفلاحية للمغرب ومن مصادر ثروة البلاد.

وحينما قررت أن أترشح للانتخابات سنة 2011 وبدون تفكير مسبق تقريبا، قررت الصعود إلى جبال تالوين واختراق سهول أولاد برحيل، وأمتطي منعرجات إيغرم وأولوز، اخترت بدون تردد أهلي وراء الجبل، رغبتي كانت ملحة في معانقة القرى والمداشر النائية هناك، فالقرار ليس سياسيا فقط، بل عائليا وروحيا كذلك، لارتباط الروح والفؤاد بأهلي ومنطقتي بتالوين ومختلف مداشر ودواوير تارودانت الشمالية في دائرة تشكل لوحة جغرافية طبيعية بتضاريسها الوعرة وامتداداتها الرائعة.

من تارودانت إلى تالوين تمر حتما بالقرية الجميلة «أولاد عيسى» المنكمشة التي تخشى من واد يخترق جنباتها، وهي تقاومه بعبق رائحة الليمون والأركان، وبعدها تجد البلدة الصغيرة أو المدينة الفوضوية «أولاد برحيل» التي تتوسع عمرانيا بدون انتباه، حيث يلتقي فيها كل من نزل من الجبل، وبعد قطع مسافة تتجه مباشرة إلى جماعة قروية صغيرة تسمى «سيدي وعزيز»، فتنعرج يسارا لتصادف طريقا يقودك لأزيد من 39 كيلو مترا وسط قمم الجبال وجمال الطبيعة بمحاذاة نهر يتحدى الجبل حتى تصل «أوناين». وإذا

استدرت يمينا في اتجاه مباشر تحملك المركبة نحو بلدة «أولوز». هذه القرية التي تتوسع في ذاتها محاولة أن تصعد الجبل بعمرانها فتنخره بشكل عنيد. تواصل الطريق فتصادف جماعة «أساكي» تخبرك برمشة عين أنك اقتربت من دخول بلدة «تالوين» حيث عبق التاريخ الممزوج بالزعفران الحر الأصيل. أما إذا اخترت أن تتعرج متحديا الجبل الذي أفقدته الطبيعة لبوسه، فستجد نفسك في الجماعة الجبلية الخلابة «تسوسفي» تنصهر في طرقات لتتسلل بين الجبال، تارة تعلو وتارة تنخفض. ومن أعلى الهضاب ترى بعض المنازل كأنها تتسلق حجارة الجبال، إنها جماعة «إيغرم» الشاهقة. نقف بالمركبة نتأمل اللوحة الجميلة التي زادها غروب الشمس تألقا ورونقا. يعود بي صديقي للحديث عن استراحتنا السابقة بجماعة «أكادير ملول» ثم يتذكر بحب غريب تناوله طاجين الماعز بزيت الأركان والزعفران الحر الذي يصفه بأنه لا مثيل له في العالم. يستمر حديثنا لينعرج إلى وصف بلدة «تيكوكة» الرائعة التي يتسوق سكانها من السوق الأسبوعي لجماعة «اثنين إذا وكيلال»، واصفا إياها بأنها تعانق الجبل الذي يؤدي إلى «تفنوت» وقمة «توبقال». صديقي المخضرم يعرف هذه المناطق كلها، يحكي كيف كان يتسوق حينما كان شابا، ويصف طرقاتها بدقة كأنه رسم جغرافيتها.

وعند رؤيتك لها ينسيك موقع موقعا، فالجمال الطبيعي خلاب وأكثر روعة رغم خطورة الطريق وصعوبة المسالك كأنها عاشقة تتمنع، أهلها في عزلة يجهلون أسبابها، لكن تتغلب عليها وتمحو آثارها طيبوبتهم وكرمهم وفطرة حبهم الأمازيغي. يحتضنونك بحب غريب، خالص وسريرة بيضاء نقية صافية، نساؤهم ورجالهم وأطفالهم وشيوخهم وفقهاؤهم يلاقونك بحب دافئ ينسيك متاعب المسالك والطرقات، يمزجون في انسجام غريب وتلقائي الحب بالبساطة فتغنيك عن زيف المدن المنمقة.

استقر الناس هناك مند زمن بعيد في أسفل الجبل، بالقرب من الوديان لحاجتهم إلى الماء الذي يحيي كل شيء. استقر الناس هنا بالقرب من الأنهار وبعض الأراضي الخصبة، والتي نزعت من الجبل بمعول فلاح قاوم الطبيعة.

حين تكون قادما من الرباط مرورا بالبيضاء، يكون السير مختلفا حيث الطرق معبدة والعمارات شاهقة. وحين تصل سوس فالوضع مختلف، فالطرق مهترئة بين الجبال والسهول، مسالك وعرة وبيوت الطين البسيطة تواجه حرارة الشمس والمطر بعنفوان يوازي شموخ الرجال والنساء السوسيات. هنا تكتشف أن للمغرب وجهين متناقضين، وجها للمدن وللواجهة، حيث المطارات والسياح والأجانب، ووجها آخر لجبال سوس، حيث الفقر والعوز والتعب وعزة النفس والقناعة، والكثير من المواطنين المغاربة، يتساءلون بألم وحسرة: لماذا لا يتغير الزمن هنا ليتحول معه المكان؟

تواصل مسيرك فتنعطف بك الطريق بعد مركز «أولاد برحيل» يسارا عبر طريق مراكش لتقابلك منطقة جبلية رائعة تدعى «تيزي نتاست» لا تبعد عن الطريق الرئيسية سوى ببضع كيلومترات، ولكن لتصلها لا بد لك من أن تعاني كثيرا، فالمسالك جد وعرة، وضيقة ومحفرة وخطرة بسبب علوها الشاهق. حين تركب السيارة في هذه المسالك الخطرة تتسارع دقات قلبك، ويجف فمك، في حين تتحرك السيارة ببطء شديد وعيناك مشدوهتان صوب الطريق الذي يتسع بالكاد لسيارة واحدة، فمرور سيارتين في وقت واحد من المستحيلات، وعيناك مسمرتان نحو الهاوية وعلى جنبات الطريق بمحاذاة أسفل الجبل ،حيث تتمنى في قرارة نفسك ألا تأتي سيارة مقبلة من الاتجاه المعاكس، وإذا أبصرها السائق من بعيد، ما عليه إلا اختيار نقطة توقف على الطريق في مساحة قد تسمح بمرور تلك السيارة في الاتجاه المقابل، وبعد ذلك تواصل السير.

يؤنبك ضميرك ويساورك القلق وأنت تمر بصورة نادرة من طريق يمكن أن تدعى بطريق الموت، فما بالك بالمواطنين في أسفل الجبل الذين يركبونه عدة مرات في اليوم، سائقون مهرة من أصحاب النقل غير المنظم، هم من يحترفون ركوب هذا الطريق، تلك هي الوسيلة الوحيدة لفك العزلة بالمنطقة، تسير هذه السيارات بسرعة محدودة جدا أحيانا لا تتعدى 10 كيلومترات في الساعة ويكون مقابلها ثمنا باهظا يؤديه البعض، والبعض يكون دينا عليه وآخرون بحكم التضامن يعفون من الأداء.

رائحة أركانة.. شباب تارودانت الشمالية:
لا طريق في الأرض ولا طريق في السماء -الحلقة2

08مايو 2019

ففي اتجاه أهل «تكليت» توجد قرية صغيرة، تنحدر بنحو 9 كيلومترات نحو أسفل الجبل في عمق الوادي، قرية جميلة يحيط بها اخضرار الطبيعة وجمالية الجبل، تتوسطها ساحة صغيرة يتخذ منها الأطفال ملعبا للكرة وأهلهم يقيمون فيها أفراحهم وأتراحهم، يحدثك الناس عن معاناتهم اليومية مع الطريق ومع باقي المرافق العمومية، لا مستشفى ولا مدرسة حتى تغطية شبكات الهاتف غير متوفرة. حدثني شاب يحمل هاتفا ذكيا من النوع الحديث قائلا يبدو أن هؤلاء الناس يريدون أن يقطعوا علاقاتنا مع العالم، فالتغطية الهاتفية غير موجودة، فبالأحرى الإنترنيت، يتحدث ساخرا: «لا طريق في الأرض ولا طريق في السماء، نحن معزولون عن العالم الخارجي بكل ما للكلمة من معنى»، لكن الناس هنا وهناك مبتهجون ومسرورون بحياتهم البسيطة، لا يبالون بشظف العيش، يرحبون بك ترحيبا كبيرا فأنت وسطهم يضعون على موائدهم عسلا حرا من الطبيعة وزيت الأركان وبعض الفواكه من أشجار طبيعية غرست بأيديهم، لا يمكن أن يرحبوا بك دون أن يقدموا لك أكلة الطاجين.

الناس هنا في «تكليت» يتحدون صعوبة الجبال والمسالك والطرقات ويبعثون بأبنائهم قصد مواصلة الدراسة في مدينة تارودانت.

في الضفة الأخرى، من الطريق الرئيسية نحو مراكش، تقع قرية جبلية تُسمى «تافنكولت» جعل منها الاستعمار مقر إدارته، أهلها طيبون يتسمون بشدة المراس ولهم عزة النفس، جل مباني إدارتهم مبنية بحجارة تعطي رونقا جميلا، لاتزال تحافظ على رونقها رغم أنها مبنية منذ الاستعمار، فلا أظن أن أحدا في الرباط يعرف هذه المنطقة كما منطقة «إيغرم»، وحده الاستعمار من عرف مكانتهما وموقعهما الاستراتيجي، أما في زمننا، فلست أدري أين توجد الأهمية أصلا؟

عند انعراجك نحو يمين مركز «تالوين»، في اتجاه طريق ورززات، ستجد مسلكا يأخذك إلى طبيعة أخرى خلاّبة في منطقة تدعى «أيت يوس»، منطقة في قمة الجبل، حيث توجد المراعي وساقية صغيرة تدعى «تامجكاخت»، وهو اسم أمازيغي له دلالة ما، عين صغيرة جف ماؤها لقسوة الطبيعة وتأثيرات الجفاف، أو ربما «لارتفاع درجة حرارة الأرض» كما قال شاب جامعي، أو «السبب لتقصيرنا في حمد الله وعبادته»،

كما يقول فقيه القرية، فلكل تفسيره، ولكن الواقع واحد هو أن هناك أزمة ماء والماء أصله المطر، والمطر قرار السماء، ورغم ذلك، فالجميع متفائلون ويؤكدون أن الماء سيعود يوما إلى العين.

ترحل إلى «تالوين»، قرية كبيرة تزحف نحو المدينة محاصرة بين جبل يسارا، يقابله في الضفة الأخرى نهر كبير يصب في واد سوس. هذا الطوق التضاريسي فرض على المدينة نموا أفقيا بين الجبل يمينا والنهر يسارا، وأما الأراضي الفلاحية، ففي جنبات النهر تتمدد وتتقلص بحسب حالة انخفاض وارتفاع منسوب مياهه، غير أن الحاجة، كذلك، إلى تشييد منازل قريبة من وسط المدينة يطارد هذه المساحات الفلاحية على قلتها، فالناس، ربما، ينتقدون ذلك، لكنهم مضطرون.

»تالوين»، هي القلب النابض لمنطقة تارودانت الشمالية، هذه الدائرة، «أي تارودانت الشمالية»، التي تضم 53 جماعة لا توجد بها ولا دائرة واحدة أو مفوضية للشرطة، عبارة عن قرى كبيرة وصغيرة، لا يوجد على جميع ترابها سوى الدرك، فالناس هنا بسطاء تضبطهم القيم والإيمان والعلاقات العائلية والأخلاق قبل أي شيء، أمازيغيون أبا عن جد أهلها يتكلمون الأمازيغية، غير أنهم لا مانع لديهم في الحديث باللغة العربية، خاصة عندما يدركون أن محاورهم لا يتقن الأمازيغية، فلاحتهم معاشية ومتمركزة حول الزعفران.

وبالنزول في اتجاه تارودانت المدينة تجد عن يمينك قرية جميلة تدعى «تفنوت» تصلها بصعوبة لمسالكها الجبلية الوعرة، ومنحدراتها المتعددة، سوقها الأسبوعي من بين أهم الأسواق الأسبوعية بالمنطقة، يقصدها الناس من أعلى الجبل.

وعلى جنباتها يوجد سد كبير مياهه دافقة، لكنها بعيدة المنال عمن يقطنون من حوله، فالعين بصيرة واليد قصيرة، ينقل الماء عبر قنوات لمئات الكيلومترات لري ضيعات كبيرة، بينما هم الأقربون منه ولا حق لهم فيه، فقط يشكون منه حينما تفرج الإدارة عن مياهه، فيأتي السيل بسرعة ويجرف أطفالهم الذين يلعبون بجنباته أو بعض من صناديق النحل التي يضعها القرويون للحصول على بعض من العسل، والشيء نفسه بالنسبة إلى الماشية التي تصادف وجودها قرب النهر أو على جانبيه، فكثيرا ما تذهب ضحيته.

قال أحدهم: «فرحنا عندما أخبرونا بأنهم سيبنون سدا على أراضينا، لكننا سرعان ما اكتشفنا أنهم أخذوا أراضينا ومياهنا وتركونا فقراء وعطشى. بني هذا السد ليكون وبالا على من حوله»، ورغم ذلك، لا يلعنونه فقط، بل يقترحون حلولا لمشاكلهم معه.

ففي تارودانت الشمالية الناس طيبون يحدثونك بخجل، يستمعون أكثر مما يتكلمون، يمعنون في حديثك، يطعمون ضيوفهم ويكرمونهم بأفضل ما لديهم. إنهم أهل تارودانت، أهل بلدي حيث مسقط رأسي.

أناس طيبون، غير لجوجين، منشرحون سعادتهم في بساطتهم، ابتسامات دائمة على وجوههم. يعرفون بعضهم بعضا، يتعاونون بشكل دائما وتلقائي، يتحملون الكثير ولا يطلبون إلا القليل، يتعاملون مع الطبيعة بحب وقبول لقسوتها، متدينون يتسابقون على تعليم أبنائهم.

شعرت أنني محظوظ لأنني منهم، إحساسي بهم يزيدك ثقلا لجسامة الأمانة، فالقدر أنصفني، لكن الوطن ظلم هؤلاء، وعليّ أن أنقل معاناتهم وعزلتهم ومطالب أبنائهم إلى المعنيين بالأمر، وإلى الذين يقررون، فأهل تارودانت الشمالية لا يطالبون إلا بالإنصاف وبحقهم في هذا الوطن، لا يطلبون لا امتيازات ولا ريعا ولا مفاضلة رغم أنهم أهل الفضل.

حين أركب السيارة في اتجاه المدينة أو حتى في اتجاه الرباط، تظل صورة القرى التي تركت خلفي حاضرة في ذاكرتي بقوة. أعرف حقيقة واحدة، وهي أن كل ما قُلته وما لم أقله لا يؤدي سوى إلى نتيجة واحدة، هي الشعور بأنني لم أنصف هؤلاء الناس الذين يستحقون الكثير.

رائحة الأركان.. السياسة أكثر قذارة في ظلمها ـالحلقة5

11ماي 2019

حينما تتنقل بين الجبال حاملا مجموعة من مطبوعات وأوراق الانتخابات لتقنع الناس بأن يصوتوا عليك، وسط دائرة جبلية جميلة غير أنها وعرة بحجم ذلك الحاجز النفسي الذي يصاحبك وأنت تلعن الانتخابات، فاعلم أن وعورة الطريق وصعوبة مسالكها ليست هي المشكلة إلا عندما تتحول إلى قضية علاقة مواطن مع الإدارة، لأن الطبيعة التي احتضنت هؤلاء الناس بين الجبال والأنهار والوديان بعيدا كل البعد عن مخارج المدينة، كأنها بُنيت لتكون حاجزا حضاريا وأخلاقيا بيننا كسياسيين وبين هؤلاء المواطنين.

وأنت تتواصل مع هؤلاء في حملتك الانتخابية تحاصرك أسئلة كثيرة ومقلقة، إذ كيف ستقنع من حاصرتهم الطبيعة وهمشتهم الدولة وعزلتهم السياسة عن الحق في الحياة بكرامة، كيف ستقنعهم بأن يساهموا في بناء هذا الوطن؟ فالانتخابات هنا في تارودانت الشمالية ليست ككل الانتخابات في باقي ربوع الوطن، وخاصة في الحواضر، إنها بالدرجة الأولى صراع مع الطبيعة.

كانت كلماتهم هادئة ونظراتهم تنبع منها الكثير من الحاجة الممزوجة بالكبرياء وأنفة من يعيش خلف الجبل. أو قل من يعانق الجبل يوميا ويتحداه، فالكلمات تخرج من فمي وأنا أشعر بالألم وبعض الخجل، وذلك من قسوة العيش وظلم الواقع الذي يتحمله هؤلاء الناس من أهلي وعشيرتي، فبأي لغة سأقنعهم؟

كنت أحمل البرنامج السياسي الانتخابي لحزبي الذي لا يهمهم فيه إلا بعض الكلمات تتلخص في واقع «العالم القروي»، هذه الجملة التي تختزل نوعا من «النفاق السياسي» وبعضا من الجهل بالأشياء.

كانت السيارة تتدحرج في منعرجات جد خطيرة على شفا هاوية، نظرات عينك لا تصل إلى مداها. وفي لحظة غريبة أرسم نوعا من الابتسامة الممزوجة بالسخرية وأنا أتذكر أولئك الشباب الذين حملتهم الصدف والولاءات والقرابات العائلية إلى اللائحة الوطنية للشباب بالبرلمان، وهم يتحدثون عن المغرب العميق. مغرب لم يحسوا به ولا يعرفونه، بل لا يدركون حتى صعوبة الوصول إليه، يجلسون في المقاهي الفخمة بالعاصمة، يدخنون السجائر الأمريكية ويتحدثون بلغة مطاطية عن العالم القروي، وعن إشكالية التعليم فيه، وعن صعوبة التمدرس وغياب التطبيب وفك العزلة، بينما هم طوال حياتهم لم يركبوا السيارة إلا على الطرق المعبدة أو الطرق السيار، أما سيارتنا فكانت تهتز بين الحجارة والحفر وتنزلق في مسالك جد ضيقة ووعرة كأنها تريد أن تلفظ «نفاقنا السياسي» في لحظة حضورنا بزمن الانتخابات.

صادفنا على الطريق مجموعة من الفتيات جميلات رشيقات رغم عناء الحياة، منهن من تحمل القش وأخريات يحملن قلل الماء، نزلت ووزعت عليهن بعض منشورات الدعاية الانتخابية التي تحمل صورتي، حدثتهن بالأمازيغية، هل تعرفتن على من في الصورة؟

أجبن: إنك أنت، ومنهن من نادتني باسمي، ومنهن من أطلقت ضحكات ممزوجة بالكثير من الحياء، يخفضن رموش أعينهن فتخفي بريقا لا تضاهيه إلا أشعة القمر.

قالت إحداهن: إنا نراك في التلفاز.

داعبتهن: هل أنا جميل في الصورة؟

قالت إحداهن: نعم؟ بل أجمل المرشحين.

ابتسمت وقلت: أنتن الأجمل، الله يحفظكن.

قاطعت أخرى قائلة: سنصوت عليك، فأنت ابن بلدنا ومن ناحيتنا.

سألتها مبتسما: وأنت ماذا تطلبين مني؟

نظرت إليّ باستحياء وأطلقت العنان لضحكة خافتة وخجولة مختفية خلف صديقتها لتقول: نريد «حماما بلديا» بمواصفات حمامات المدينة.

لن أخفيكم سرا، شعرت بمرارة شديدة واستفزاز كبير، ففتيات في عمر الزهور رشيقات، ذات العيون العسلية خجولات تحسدهن الطهارة على نقائهن وصفائهن الطبيعي، لا يطلبن إلا أن تمنح لهن وسائل النظافة، يردن أن ينظفن أجسامهن عندما يكون البرد قارسا في مكان ساخن، لعنة الله على هذا الزمن الرديء، هذه الكائنات الجميلات يعشن في النظافة الحقيقية ويأبين أن تجتاح الوساخة أجسادهن.

ودعتني الفتيات وأنا أعدهن بإيجاد حل لمشروعهن الصغير أو قل لحلمهن البسيط «حمام بلدي.«

قالت إحداهن مودعة: هل سنراك في التلفاز مرة أخرى؟

ابتسمت معقبا: حينما سنبني الحمام.

بين صعوبة الجبل وبعد التمدن ورقي الحضارة ترددات هوائية اسمها التلفاز، تنقل الصورة وتقفز على صعوبة الجبل لتصل إلى منتخبيك الذين صوتوا عليك وهم يحملون الكثير من المشاريع البسيطة في أذهانهم

لتغيير أوضاعهم، بينما نحن باعتبارنا نوابا للأمة نحمل أوراقا ونتحدث في البرلمان بلغة منتشية، تارة عن العلاقات الدولية، وتارة عن العمق الاستراتيجي، وأخرى عن إشكالية المديونية الخارجية وطبيعة البورصة وكلمات طنانة حفظناها في الجامعة وفي اجتماعات الأحزاب والمؤتمرات واللقاءات الدولية، وهن يردن الحياة ببساطتها، بمتطلباتها اليومية لضمان الحد الأدنى من كرامة الإنسان، وكأن جسورا هدمت ومسافات مددت بين نفاق السياسة وبين حقيقة الواقع، فكثير من النواب يتحدثون لغة دون أن يدركوا دلالاتها ومعناها، وحتى في كثير من الأحيان دون فهمها، فقط يوهمون أنفسهم بأنهم مثقفون كبار، وبأنهم سياسيون من حجم غير مألوف، بينما جهلهم بأبسط أوجه الحياة القائمة هناك وراء الجبال تؤكد حجم محدودية البعض وسوء نيات البعض الآخر، فالكراسي الوتيرة التي قد تنسينا أن في الطبيعة فتيات زهور ترتقين في الحياة بشكل يوازي أجمل ما في الطبيعة.

فتيات جميلات وشباب في أفياء وظلال أشجار اللوز والأركان، لا يريدون سوى مدرسة وحمام متواضع، وملعب صغير، ومسلك معبد، ومستوصف بسيط، كما لا ينشدون إلا قليلا من الاهتمام، وصنع الحياة بالممكن والقليل دون طمع في الآخر، يريدون ما يتحدون به قسوة الطبيعة عندما تغير جلدها بتناوب الفصول، في اللحظات التي يبدو فيها أن البرلمان أنشئ لاستهلاك الكلام، فحسب، وأما ما وراء الجبل، فقد خلق ليعيش العذاب، وبين الاثنين قد يفقد الإنسان احترامه لنفسه ويتساءل عن طبيعة حقوقه، أو عن الوضع الحقيقي للأمة التي يمثلها أو ينوب عنها.

وأوضح أن من يعيشون في غرف مخملية بالمدن ليس كمن يصارع الحجارة وصعوبة التضاريس بأنامل من الياسمين، وأن يكون الإنسان ممثلا لأمة الأنانية بالمدن، ليس كممثل لمواطنين بسطاء رمزا للتحمل وللكبرياء وللقناعة قابعين وراء الجبال وفي القرى، وبين الاثنين خط فاصل ورفيع بين نوعين من الأخلاق، وبون شاسع بين قيم الطبيعة وقيم انتهازية على مقاهي أرصفة المدن، إنه الفرق الذي يدمي القلب ويدمع العين، ويؤنب الضمير. أليست السياسة هي القدرة على التحمل حتى ولو كان ذلك من خلال معايشة آلام الآخرين، وأنت في موقعك على الشرفة التي تعلو أصوات الألم؟ وفي جميع الأحوال أقول لأولئك الشبان، وبالخصوص لأولئك الشابات وأنا خجول أكثر منهن وخجلي بحجم الجبل؟ معذرة، فليست الطبيعة هي الأكثر ظلما، بل السياسة الأكثر قذارة في ظلمها، ولكن ما بوسعي أن أفعل في زمن تنهار فيه القيم تحت أرجل كلمات السياسة.

رائحة الأركان.. صداقة برائحة الزعفران -الحلقة6

14مايو 2019

شمس حارقة تتوسط كبد السماء حين أوقفت السيارة أمام المقهى الموجود خارج القرية على سهل فسيح، تحده جبال الأطلس الكبير الشاهقة وآثار نهر قديم قد جف ماؤه. بجانب الطريق بني المقهى البسيط تؤثثه بعض الكراسي المتناثرة والموائد المتهالكة التي تناثرت عليها بقية آثار الطعام، وقد بدا أن عنصر الزمن أنهكها. سحبت كرسيا خارج المقهى لعلي أجد مفرا من الحرارة التي تجثم على تفاصيل المكان.

خرج شاب من بين الموائد المهترئة، وعلى وجهه ابتسامة ترحيب واهتمام قائلا: « مرحبا بمرشحنا ». بادلته التحية مقرونة بابتسامة، ودون مقدمات أخبرني أن الحاج الحسين والحاج عبد الله كانا هنا، وقد سألا عني وسيعودان بعد قليل.

ثم سألني إن كنت أرغب في شرب كأس من الشاي، أومأت برأسي موافقا، فمن يجرؤ على أن يمتنع عن شرب شاي تالوين بالزعفران الحر؟

جلست على الكرسي تحت ظل حائط المقهى نائيا بنفسي قليلا عن حرارة خانقة ليس للإنسان فحسب، بل ربما حتى بالنسبة إلى الذباب والحشرات التي لجأت إلى الداخل لتحتمي من لهيبها متنقلة بين الموائد. وغير بعيد عني يحتمي كلب بظل شجرة، تقيه لفح الشمس، وعلى مرمى من العين يظهر حمار يحمل أثقالا يبدو أنه عائد من رحلة تسوق مستبقا صاحبه الذي يتبعه بخطى حثيثة، فهو يعرف طريقه وتكفيه «نغزة» من صاحبه لينطلق دون توقف حتى تخوم الديار.

بقيت للحظات أتأمل ما يحيط بي قبل أن ينتزعني من هذا المشهد صوت محرك سيارة مقبلة من مسلك ترابي من جهة يمين المقهى، وسط عاصفة من الغبار، تتجه نحو المقهى لتقف ببابه، ترجل منها الشخصان اللذان كنت أنتظرهما، هما الحاج الحسين والحاج عبد الله، شخصيتان غريبتان، رجلان نحيفان تجاوزا السبعين من العمر لا يفترقان إلا عند غروب الشمس، ينتقدان أحدهما الآخر طوال اليوم، يتساجلان ويتناقشان بصوت مرتفع، مخطئ من يفسر هذا المظهر بالعداوة، بل إن المعنيين يجدان في ذلك متعة وتسلية تزيد متانة صداقتهما وأخوة جمعت بينهما لأزيد من سبعين سنة، فانتقاد أحدهما الآخر لا يتوقف أبدا، بل يصل إلى حد التفكه والهزء في نوع من السخرية الممزوجة بصدق الصداقة وعمق العلاقة، سلما عليّ كعادتهما ثم جلسا، نادى الحاج الحسين النادل:

هات برادا من الشاي، لكن لا تجهزه أنا من سيفعل.

ابتسم الحاج عبد لله وأشار إليّ بإشارة سريعة مخاطبا صاحبه وهو يغمز بعينيه:

نريد أن نشرب الشاي، ولكن بمذاقنا نحن وليس بمذاقك المعطل، فقد بلغت من العمر عِتيا ولم تعد تفرق بين الأذواق؟

ضحك الجميع، يبدو أنهما شرعا في الاحتكاك من جديد، فهذه عادتهما.

بعد تناول الشاي وكِسرة من الخبز التقليدي الممزوج بزيت الأركان، نبهنا الحاج الحسين إلى حلول وقت صلاة العصر وأن علينا أن نقوم للوضوء والصلاة، توجهنا جميعا نحو مكان مرتفع قليلا، حيث توجد بعض الأوعية البلاستيكية مخصصة للوضوء، حمل كل منا وعاءه المملوء بالماء، وبعد الوضوء ابتعدنا قليلا عن البئر ونزعنا أحذيتنا فأقام الحاج عبد لله الصلاة، بينما أم بنا الحاج الحسين، أحسست بوخز الحجارة الصغيرة في ركبتي وجبهتي وصعوبة في الجلوس عليها خاصة عند التشهد، بينما لم يكن يبدو أن الآخرين يكترثون لذلك. فقد تعودوا على ذلك، بينما يصعب علينا نحن فقط، جيل كراسي المدارس والجامعات ومكاتب مؤسسات الرباط.

بعدما أنهينا الصلاة والدعاء، عاد الجميع إلى المقهى إلا الحاج الحسين، فقد تأخر في الدعاء، وبقيت واقفا أنتظره تلفحني حرارة الشمس الحارقة، عندها قال الحاج عبد لله بنبرة غضب تخفي شيئا من السخرية:

إنه دائما يتأخر في الصلاة لأنه رئيس جماعة يطلب من لله المغفرة عن المال العام وأموال الجماعة التي يكون قد التهمها!

أنهى الحاج الحسين جلسة الدعاء ووجدني أضحك.

فسألني: ما بك يا أستاذ؟

حدثته عما قاله الحاج عبد لله، وأضفت أنه قال لي، كذلك، لقد أخبرته أنك لما كنت بمكة المكرمة تؤدي فريضة الحج ورأيت الكعبة الشريفة أول مرة، اغرورقت عيناك بالدموع.

وهل أخبرك عن السبب؟ يقول الحاج الحسين.

أجبته: صراحة قال لي السبب ولن أخبرك به.

وبعدما ألح عليّ أجبته: قال إنك بكيت بسبب ذنوبك الكثيرة، إذ كنت تلتهم أموال المجلس القروي!

زاد الحاج عبد الله الذي كان واقفا بجانبي مبتسما: نعم قلت ذلك، أما أنا فذنوبي أقل لأني لا مسؤولية جماعية عليّ.

فرد عليه الحاج الحسين مبتسما: حسبي الله فيك.

ضحك الجميع وتوجهنا نحو السيارة.

اقترح عليّ الحاج الحسين أن نذهب اليوم لزيارة الحاج إبراهيم فقيه المدرسة العتيقة، تحفظت في الذهاب لأننا في زمن الانتخابات، وسيعتقدون أنني أوظف هذه الأمور في الانتخابات.

رد علي الحاج عبد الله: من العيب ألا نزور الرجل وقد كان من أعز أصدقاء والدك رحمه الله، ثم إنه يسأل عنك دائما.

رائحة الأركان.. صداقة برائحة الزعفران -الحلقة8

اتجهنا بسيارتنا نحو مدشر يبدو للوهلة الأولى قريبا من مكان وجودنا، بينما حقيقة المنعرجات والمسالك المؤدية إليه تجعله بعيد الوصول، سلكنا طريقا نصف معبدة مليئة بالحفر، ثم انعرجنا يمينا داخل مسلك ترابي تتخلله منعرجات حادة جدا في طريق جبلية تعلو تارة وتنخفض أخرى. وبعد ساعة من سير السيارة على طريق مهترئة تبرز منها أجزاء حجرية عانت العجلات منها كثيرا وصلنا إلى باب منزل ترابي صغير، وحتى قبل أن نطرق الباب خرج شخص نحيف البنية على وجهه الأسمر لحية متوسطة بيضاء، يرتدي جلبابا وسلهاما أبيض اللون، أقبل عليّ قبل أن يسلم على الآخرين وعانقني هاتفا: أهلا بابن صديقي، كان يعانقني ويدعو لوالدي بالرحمة والمغفرة، وهو يقول دعني أشم رائحة صديق افتقدته منذ سنوات رحمة لله عليه. أخذني من يدي وأدخلني منزله الصغير، وهناك أقبلت عليّ زوجته «الحاجة رقية» وقبلت رأسي وعانقتني وسألتني عن أمي وصحتي وصحة أبنائي.

بعد هذا اللقاء المشحون بأحاسيس الشوق إلى الماضي وجماليته التلقائية، جلسنا نتبادل أطراف الحديث على إيقاع طقوس إعداد الشاي المنعنع الذي تكلف به الشيخ نفسه وابنه يقدم له ما يحتاجه إلى ذلك. شربنا الشاي وأكلنا بعض الحلوى.

سألني الفقيه إن كنت سأترشح مرة ثانية للبرلمان؟ أجبته:

بعد موافقتك سيدي الفقيه.

نظر إليّ نظرة فخر وقال:

" عندما كنت تظهر في التلفزيون كنت أتباهى بك بين سكان القرية، أقول لهم هذا ابن صديقي، بل تربيتي شخصيا ."

ثم أضاف: "أتعرف أيها المرشح: عليك أن تهتم أكثر بمشاكل المنطقة؛ بمدارسها العتيقة أولا، فهي منارات دينية وعلمية في تارودانت وسوس عموما، وتعرف خصاصا مهولا في التغذية ووسائل العمل، وطلبتها من حفظة القرآن هم مستقبل البلاد، بهم نقيم الصلاة ونقرأ القرآن. وبدأ يدعو لله أن يصلح البلاد والعباد "

خاطبني مرة أخرى بالحاح: «عليكم أن تفكروا كيف تساعدون هذه المدارس العتيقة.«

أما أنا فأومأت برأسي موافقا.

قال الحاج عبد لله وهو يستعد للقيام: شكرا سيدي الفقيه لقد حان وقت الرحيل.

أشاح الفقيه برأسه وقال: أعوذ بالله، تغادرون دون تناول بعض الطعام، لا يليق أبدا. ونادى الحاجة «رقية» مستعجلا مائدة الطعام الذي أوشك أن يكون جاهزا.

لم يمض سوى بعض الوقت حتى جاءت الحاجة بمائدة خشبية بسيطة أجمل ما فيها أنها مهترئة، وضعت عليها غطاء من البلاستيك وبأرجل قصيرة لم نحتج معها إلى كراسي للجلوس، تحلقنا حولها ونحن نفترش الحصير وعليه سجاد من صنع تقليدي نسجته أنامل المرأة الأمازيغية، ثم أحضرت الحاجة رقية «الطجين»، وما إن رُفع غطاؤه حتى انبعثت منه رائحة شهية امتزجت فيها رائحة الزعفران بزيت أركان وبخار يتصاعد من الدجاج المرصوص بعناية، مع بعض الخضر والبيض.

بدأنا نأكل بعدما وزع علينا الفقيه قطعا من الخبز البلدي «تنورت» وحرارة الطاجين تُعقّد علينا المهمة، ظل الفقيه يرحب بنا طيلة الوجبة، ويقول لي بالأمازيغية: «تفضل»، كان الطاجين لذيذا، وكان الفقيه يأكل ويتكلم، يحكي تارة عن ذكريات تهم علاقته بوالدي، وتارة أخرى عن محطات من بناء المدرسة العتيقة وطبيعة المشاكل التي تعانيها هذه المدرسة حتى أنهينا الطاجين، وبعده وضعت الحاجة طبقا آخر من فواكه مختلفة في حجمها وشكلها وتظهر أنها من إنتاج محلي.

بعدما أنهينا الطعام والشاي، قمنا مودعين الفقيه لنكمل طريقنا. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله، والقرية بدأ يعمها الظلام، فليست هناك إنارة عمومية سوى ضوء القمر الذي يخفف من عتمة الليل، سبقني الفقيه وهو يحمل مصباحا يدويا وعندما وصلنا إلى السيارة عانقني قائلا: «لا تهتم، إذا نجحت فهنيئا لهم على حسن اختيارهم، وإذا لم تنجح، فهنيئا لك لأن لله خلصك من أمانة ستحاسب عليها يوم القيامة.«

رددت عليه بابتسامة وأردف قائلا: «لا تنس أن تبلغ سلامي للوالدة ولباقي الإخوة». عانقتني الحاجة «رقية»، وهي تؤكد لي أني سأنجح في الانتخابات لكوني المرشح الأفضل، كانت تقولها ببراءة وبحماسة وهي تضع يدها على صدرها، وأما الفقيه فظل يدعو لي وهي تردد خلفه آمين.

استقلنا السيارة مرة أخرى، واتجهت بنا هذه المرة نحو مسلك آخر أكثر صعوبة، كان الليل هادئا وجميلا ويزيده جمالا هبوب نسمات من ريح خفيفة مقبلة من سفح الجبل، والسيارة تتدحرج بين الحجارة وطريق ترابي صلب دكته، أو قل عبدته حوافر الدواب.

بعد لحظات من السير لاح لنا شخص آتيا من الجهة الغربية، وهو يصيح ويشير بيديه. تساءل «الحاج الحسين» من يكون ذلك الشخص؟ وماذا يريد؟ أوقف الحاج عبد الله السيارة فجأة وهو يحملق في وجه الشخص الذي كان قد لحق بالسيارة، ثم استدار نحو الحاج الحسين قائلا: إنه محمد بن (الحاج أمزال).

وصل الرجل إلى باب السيارة بأنفاس متقطعة من شدة الركض وقال للحاج عبد الله: لقد علم أبي بزيارتكم للفقيه، وهو ينتظركم بالبيت يريد أن يقابل المرشح.

ركب معنا وهو يسعل من شدة الركض واتجهنا عبر طريق مخالف بجانب النهر وهو يوجه السائق، يتحدث تارة عن مواقع، وتارة أخرى عن بعض المنازل ومن يسكنها، وقد يجيب أحد الراكبين عن السنة الزراعية وأخبار عائلة ما، حتى وصلنا أمام بيت ترابي عال من طابقين، خرج (الحاج أمزال)، رجل مكتنز في الستينيات من العمر يردد «يا مرحبا يا مرحبا». كانت يداه خشنتين وذراعاه قويتين من صلابة طبيعة الجبل وأحجاره، وجلبابه تعلوه آثار التراب فطبيعته كفلاح بسيط، فيما يبدو جعلته لا يهتم بهندامه.

رائحة الأركان.. صداقة برائحة الزعفران -الحلقة10

18مايو 2019

دخلنا إلى البيت وجاءت (الحاجة فاظمة) مهللة كما هو الحال مع (الحاجة رقية) تسلم عليّ وتسألني عن أحوال أمي وإخوتي وتسألني السؤال ذاته، هل ستترشح مرة أخرى؟

أجبتها: نعم، ولماذا؟

عقبت بسرعة قائلة: لأستمر في إقناع نساء المدشر بالتصويت عليك، ثم أطلت من النافذة وهي تنادي على جاراتها:

" نعيمة، الحاجة زهرة، السعدية، وغيرهن من الأسماء، تعالين فالمرشح موجود بيننا ". بعد دقائق معدودة استجبن لدعوتها وخرجن من البيوت المجاورة بلباسهن التقليدي، رفقة أزواجهن أو أحد من أبنائهن، اتجهن جميعا نحوي أقبل رؤوسهن وهن يقبلن كتفي، يسألونني عن صحتي وأخبار عائلتي، وأزواجهم يسلمون علي ويدعونني إلى بيوتهم، كنت محرجا ومسرورا في الآن نفسه، فأنا بين أهلي وأسرتي تجمعنا الأرض والدم والقرابة.

جاءت (الحاجة فاظمة) كما هي العادة في تلك الناحية بصينية الشاي وابنتها تحمل صحون العسل و«أملو» والسمن، وابنها خلفها يحمل «طبك» فيه الخبز، وضعت الحاجة الصينية وهي لا تتوقف عن تكرار عبارات الترحيب وتصف ذلك اليوم بالعظيم والزيارة بالحدث.

تعالت أصوات الجميع رجالا ونساء تعد بالتصويت: أنت ابن مدشرنا وعائلتك من هنا وأنت ابننا لن نجد من يمثلنا أفضل منك.

بدأ الجميع يتجاذب أطراف الحديث وتنوعت المواضيع، تحدثوا قليلا في السياسة وفق ما يرونها، كما تحدثوا طويلا عن جهود جلالة الملك في تطوير البلاد، لينتقلوا بعد ذلك إلى الحديث عن رئيس الحكومة، البعض ينتقده وآخرون يمزحون وهم يتحدثون عنه. أما الشباب فكانوا يضحكون من بعض مستملحاته وهم يتبادلونها عبر هواتفهم المحمولة، واستمر الجميع هكذا يتسامرون إلى أن تدخل (الحاج أمزال) مقاطعا الجميع قائلا:

" نعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده اليوم، وهو دعم مرشحنا، أدعو الجميع إلى التحرك بقوة في باقي المداشر لإقناع الناس، فأصوات قريتنا لا تكفي، بل يجب إقناع الآخرين في باقي المداشر. أما نحن فنعرفه

جيدا ونعرف أخلاقه. وبدأ بالحديث عني واسترسل في سرد مواصفاتي مما أخجلني كثيرا، ليطلب مني بعد ذلك كلمة ختامية للحاضرين، فقلت: «ماذا عسى المرء أن يقوله لعشيرته وأهله الذين يحبونه على الفطرة ودون طمع أو مصالح شخصية، بل حبهم بلغ التفاخر، سوى الشكر لكم على حسن الاستقبال وعلى كرم وحفاوة الضيافة. أقول فقط، إنني حزين ومتأسف لكوني عاجز عن تلبية جميع مطالبكم المشروعة، وعن كثرة الانشغالات السياسية التي تبعد اللقاءات المباشرة معكم ». هنا قاطعتني امرأة عجوز: « لا يهمك، يكفي أنك تزورنا كلما سمحت ظروفك وتصل الأرحام، وأما مشاغل الحياة فلا تنتهي"

رفع (الحاج أمزال) كفيه إلى السماء وقرأ الفاتحة ودعا للجميع بالتوفيق وبالرحمة لآبائنا وأجدادنا ثم خرجنا، وتخلف الحاج عبد الله يسأل بلعيد: «لماذا لم تأت إلى السوق الأسبوع الماضي، لقد بحثنا عنك؟» أجاب: «إننا بصدد إعداد حواشي النهر قبل حلول فصل الشتاء». إنهم يقومون بذلك لأنه عندما يحل موسم الأمطار ويفيض النهر تنجرف التربة من الأراضي المحاذية له وتتلف الزراعة، لذلك يقومون بوضع الحجارة على جنباته حتى تحد من شدة انجراف التربة، فتدفق الماء بقوة وسط النهر، غالبا ما يجرف الحجارة وجزءا من التربة معه، ورغم ذلك يقومون بهذا العمل كل سنة دون كلل وبشكل جماعي.

سأله (الحاج عبد الله) مجددا: كيف هو منتوج الزعفران هذه السنة؟

أجاب (الحاج أمزال): جيد والحمد لله، رغم أن جنيه متعب جدا، فكما تعلم نضطر إلى أن نستيقظ قبل الفجر لنجني شعيرات الزعفران حيث تكون الأزهار متفتحة وما إن تطلع الشمس حتى تغلق مما يصعب عملية الجني، ثم إن ثمنه رخيص جدا بالكاد يكفي لتغطية المصاريف. ثم ما العمل إذن؟ لكن الحمد لله على كل حال.

ودعنا الجميع وتبعتنا (الحاجة فاظمة) تحمل قلتين وهي تقول: خذ هذا العسل والزيت «تقصد زيت الأركان» وتناولهما في الفطور إنهما صحيتان، صاح بها بلعيد «اجلبي له أخريين فهذا قليل»، شكرتهما وقلت هذا يكفي.

ركبنا السيارة وعيني على القلتين كي لا تنكسرا، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والقمر المنير يضفي على المشهد رونقا يزيد الطبيعة جمالا وبهاء، تاركين وراءنا أشباه ملائكة ارتبطوا بالأرض كارتباطهم بالسماء، يحرثون أرضهم ويزرعونها، متمسكين بها حتى الموت، حياتهم بسيطة، خجولين عند حديثهم، عزتهم بالنفس لا تخفي تواضعا وكفافا في العيش، يستيقظون فجرا ليغازلوا وردة الزعفران بأيديهم كأنهم يرسمون بمداد الذهب، وعند الضحى يعودون إلى بيوتهم فارين من حرارة الشمس، تقوم بعدها النساء بأعمال يدوية كغزل الصوف وصنع بعض الأواني التقليدية. أما الرجال فيهتمون بالماشية، وعند وقت

العصر يعودون إلى البساتين والحقول رجالا ونساءً دون ميز أو استعلاء، يشتغلون إلى وقت أذان المغرب، وبين المغرب والعشاء يجلسون في المساجد لتلاوة القرآن وزيارة بعضهم البعض، لا يشكون من ضنك المعيشة أو قساوة الطبيعة، يسألون كثيرا حول أمر الوطن، الخوف لا يعرف طريقا إلى قلوبهم، يحترمون الغريب، يصمتون داخل الجماعة، خاصة حينما يتكلم الكبير أو العارف أو الضيف، ألم أقل إن أروع ما في الحملات الانتخابية هو هذا التواصل مع مثل هذه النماذج البشرية الرائعة التي قد لا تجدها حولك دائما في زحمة الحياة الهائجة المتسارعة.

رائحة الأركان.. صداقة برائحة الزعفران -الحلقة12

لا يمكنك زيارة تارودانت الشمالية خلال فترة الانتخابات ولا تجالس (**الحاج بلعيد**) عدة مرات، فهو موسوعة شعرية ولغوية، بل مدرسة تفيض تراثا وفكرا ومعينا من تجارب الحياة ومصدر معرفة بأحوال الناس، لدرجة أنه في بعض الأحيان يتراءى لي أن (الحاج بلعيد) يعرفه كل أهل تارودانت ونواحيها ويعرف جلهم، كبيرهم وصغيرهم.

طوال النهار تجده جالسا في مقهى أو على حجرة في زاوية على جانب الطريق بجلبابه وسلهامه، بتواضع الكبار، يجله الناس ويحبونه ويقدرونه، يمرون أمامه ويلقون عليه السلام باحترام يليق بقدره، يرد عليهم بعفوية وطلاقة ويسألهم عن أحوالهم.

(الحاج بلعيد) رجل متقاعد اشتغل لمدة طويلة في التدريس منذ خمسينيات القرن الماضي، درّس في العديد من المدارس العمومية بجهات وأقاليم متعددة في المغرب، يتحدث عنها بتفاصيل دقيقة وكأنه عاد منها فقط بالأمس القريب، قبل أن ينهي مساره المهني بالدار البيضاء كمدير لمدرسة ابتدائية ليتقاعد بعدها ويعود إلى أولوز، مسقط الرأس.

هو رجل في السبعينيات من العمر، درس خلال مساره الدراسي الكثير ممن أصبحوا الآن شخصيات ومسؤولين كبارا في المغرب، فحينما يتحدث عن أحدهم يذكر أنه درس على يديه، وكل تلامذته في تقييمه نجباء، يتحدث عن ذلك دون تباه، فكل التلاميذ كانوا لديه سواسية متساوين في نظره، يحكي سيرهم بفخر ممزوج بكثير من التواضع، لكنه يحسبهم كلهم أبناءه.

والكثير ممن سافر من أهل قريته، بنواحي بلدة «أولوز» وسط جبال تارودانت الشمالية، قد مروا واستقروا ببيته بالدار البيضاء لمدد متفاوتة قبل أن يدرسوا في الثانويات والمعاهد العليا أو الجامعات سواء بالدار البيضاء أو بالرباط، ظلت يد (الحاج بلعيد) بيضاء ممدودة للكثيرين وكانت خيرا عليهم لدرجة أنه لا يتذكر عددهم، كان بيته بالدار البيضاء، كذلك، محجا للعديد من الآباء وساكنة تارودانت ولكل من قصد هذه المدينة من أهل مدشره وقريته ومنطقة تارودانت عموما، من أجل رحلة علاجية أو لقضاء غرض تجاري أو إداري أو غيره.

يتقن (الحاج بلعيد) اللغة الأمازيغية، كما أن له قدرة لا نظير لها في التمكن من قواعد اللغة العربية، فهو كما يفكك رموز اللغة الأمازيغية لثقافته الواسعة بها وبتاريخها، له كذلك إلمام واسع باللغة العربية وبقواعدها وعلومها وبالثقافة الإسلامية، بحيث لا يخلو نقاشه باستشهادات دينية.

وعندما يناقشك (الحاج بلعيد) في اللغة العربية، يبحر بك في عالم الأدب العربي وبحور الشعر التي يحفظ منها الكثير، لا تكاد تذكر أمامه صدر بيت شعري حتى يقاطعك بذكر العجز من البيت، بل يتلو عليك قصيدة شعرية في الموضوع ذاته، وينهي كلامه بإعراب بيتها الأخير، فالحاج بلعيد رجل حافظ لدواوين عدة شعراء من جميع العصور، بدءا بشعر العصر الجاهلي والأموي والعباسي.. وما تلاهم من مراحل.

عندما تهمس بأي بيت شعري أمامه وتخطئ، يسارع فيصلح لك البيت الشعري شكلا ونحوا، فـ (الحاج بلعيد) رجل أدب ونحو وبلاغة وشعر بامتياز، يتقن قواعد اللغة والنحو، يبحر بك في آيات وسور القرآن الكريم ليؤكد لك قاعدة لغوية أو يعدل لك فكرة أو يصحح لك مفهوما، فهذا الرجل المتواضع معجم لغوي يسير على قدميه. للحاج بلعيد ثقافة سياسية مهمة تحفل بتاريخ الفكر السياسي المغربي وتطور شخصياته منذ الاستقلال. وحينما التقيته بمناسبة الانتخابات الأخيرة حدثني طويلا عن مشكلة جديدة في الممارسة السياسية، وهي توظيف الدين في الممارسة السياسية، فقد بدا منزعجا من الذين يناقشون الدين من خلال السياسة، يتحدث عن السياسيين ولا يتهمهم، ينتقد السياسة ولا يتقزز منها، لكنه يربطها دائما بالممارسة الأخلاقية «**فلا سياسة بدون أخلاق وأشخاص متخلقين يعطون النموذج**»، يؤكد (الحاج بلعيد).

كلما عدت إلى الانتخابات بدائرة تارودانت الشمالية أجده متهيئا مستعدا للدفاع عني، يعتبرني ابنه الأصغر، لا يتردد في الجزم بكون انتمائي العائلي وإيماني بالله ورسوله، كما يقول تجعله مستعدا للدفاع عني في كل الاتجاهات من أجل ذلك. يتحدث للجميع عني حتى الجماعات التي لا يعرفها، فالكل يعرفونه، فمن من أهل تارودانت ونواحيها لا يعرف (الحاج بلعيد)؟.

رائحة الأركان.. الحاج بلعيد: أركان الجبل -الحلقة13

يتحدث (الحاج بلعيد) في مواضيع مختلفة، يعشق كثيرا السير لمسافات طويلة على قدميه دون تعب، وبمجرد حلول وقت الصلاة يقصد أقرب مسجد، بل ينسحب من اجتماع أو مسامرة أو جلسة مناقشة، ثم يعود لإكمال نقاشاته، لا شيء يشغله عن دينه، ينصت للناس بأدب ولا يثقل عليهم في الحديث، ثم ينسحب ليترك الناس وشأنهم.

يتصرف بنوع من الاستقلالية ممزوجة بنوع من الغموض، إذ لا يحمل للدنيا همّا ولا يجري وراء منافع لذاته، يعيش على القناعة. راغب في عمل الخير، لا يأتيه شخص في طلب ويرده، يشارك الناس جميع أفراحهم وأتراحهم.

كلما رن الهاتف وظهر لي رقم (الحاج بلعيد) أجيب على الفور، إذ للرجل في نفسي مكانة وحظوة، يتصل بي باستمرار للسلام والسؤال عني، أو للتدخل من أجل حالة إنسانية مستعجلة بالمنطقة، وفي بعض الأحيان يخبرني بأخبار هذه العائلة أو تلك، يخاطبني بلقب «الأستاذ» وكثيرا ما أتحرج في دواخلي، وأخاطبه أنا بسيدي (الحاج بلعيد) وأرى في ذلك مفخرة لي، موضوع مكالماته لا تتعدى دعوتي إلى الاتصال بفلان لأنه مريض أو أحد أقارب الآخر لأنه في مأزق أو الدعوة إلى زيارة ذاك لسبب من الأسباب، فهو حريص على إرشادي للسؤال عن أحوال الناس ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم.

يحفزني (الحاج بلعيد) دائما على بناء علاقات إنسانية أعمق وأوسع مع محيطي وأهلي وساكنة تارودانت وسوس كلها، وحينما أسأله عمن يكون الشخص الذي حدثني عنه ينخرط في سرد عن النسب والانتماء الأسري والقبلي كأنه يعرف العائلات والأنساب كلها، يقدر العلماء كثيرا ويقدر الناس جلال قدرهم، يحدث الكبير كما الصغير، يقول لي وهو يبتسم:" إنهم كلهم عباد الله ".

يحب (الحاج بلعيد) في أغلب الأحيان أن يسير وحيدا، محدثا نفسه، يقرأ القرآن، أو ينشد مدحا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ينشد شعرا، جدي، قليل المزاح، يحتفي بأي شخص يلتقيه في الطريق، يستجيب لدعوة هذا وذاك، يجتمع مع الجميع والكل يحب مجالسته، فالجلسة بوجود (الحاج بلعيد) لا تخلو من استفادة وإفادة في تواضع تام.

يعتبر (الحاج بلعيد) قبلة المحتاجين وخير وسيط وفاعل خير، تقضى كثير من حوائج الناس على يده، ما أن يأتيه شخص بطلب حتى يخرج هاتفه البسيط من جيبه ويتصل بهذا الشخص أو ذاك قد يكون عرفه أو تتلمذ سابقا على يديه، يتوسط لدى هذا المسؤول أو ذاك لقضاء حاجات الناس، فكل الزمن حتى الافتراضي للحاج بلعيد ملك للناس، يقول دائما: "نحن خلقنا في هذه الدنيا فقط، لعبادة الله والسعي إلى الخير لفائدة الناس ".

لا يريد (الحاج بلعيد) مغادرة قريته الصغيرة، مسقط رأسه بضواحي منطقة «أولوز»، ربما، لأنها تسكن روحه ووجدانه، أو، ربما، لأن هواءها النقي ينعش صدره، أو أكلها الطبيعي بالمواد الطبيعية الأصيلة كالزعفران وزيت الأركان يناسب صحته، لهذا يكره (الحاج بلعيد) السفر إلى الدار البيضاء حيث يملك بيتا آخر هناك سكنه لسنوات عديدة، يفضل بيته التقليدي البسيط بقريته على بيته العصري هناك بالدار البيضاء.

حينما تنتهي الانتخابات يسلم عليّ مهنئا ثم يختفي، فالرجل بهيئته وهيبته يحمل تاريخا من التدريس، علم الكثيرين ومازال يعلم بأخلاقه وبتواضعه الجميع.

حينما يحدث الجماعة يثير اهتمامها، يرد على هذا ويشاكس الآخر دون الإخلال بالاحترام ولغة وأخلاق وأدب الحوار، معاشه الزهيد يكفيه ويجعله مرتاحا بين ثنايا جبال الأطلس، يضحك ويردد: «لقد رجعنا من حيث انطلقنا» وكأنه يقول: " الحمد لله الذي عدنا فيه إلى قواعدنا سالمين ".

عاش الحاج بلعيد أستاذا ومدرسا، كما سبقت الإشارة، وظل أستاذا في الأخلاق والتواضع. ولا شك أن مثل هؤلاء قلائل في زمننا، لا تكتب عنهم الكتب ولا تنشر صورهم في الصحافة، فهم لا يحبون الأضواء، وإنما يكفيهم العيش واحتلال المواقع الرمزية في قلوب الناس، إنهم أعمدة مجتمع إنساني وأخلاقي في القرى والمداشر، يقف الناس لهم إجلالا واحتراما.

أمثال الحاج بلعيد كثر في سوس، يعيشون على الكفاف، لا يثقلون على أحد ولا يسيئون للآخر، ينصحون الناس من حولهم، يتواصلون مع الجميع دون فرق بين الصغير والكبير وبين الغني والفقير.

يحدثني (الحاج بلعيد) دائما وأحفظ له جملة تقول: «احرص على رحمة من في الأرض يرحمك من في السماء»، والتي يختزلها بقوله: «ارحم ترحم فالكل عباد الله». أطال الله عمر (الحاج بلعيد) ذلك الرجل الودود الجميل العميق الاستثنائي.

رائحة الأركان.. لالة يطو: منة من الزمن الجميل -الحلقة14

كان الجو حارا والطريق إلى تارودانت الشمالية تتمازج فيها صور الاخضرار وبعض من ملامح المناخ شِبْهِ الصحراوي. وبجانب الطريق الطويل تحت ظلال أشجار الأركان المتناثرة تجد أناسا جالسين على حافة الطريق، ينتظرون مرور حافلة أو أي وسيلة نقل، غير مبالين بسيارات صغيرة أو دراجات نارية أو حتى بعض الجرارات التي تملأ المكان ضجيجا.

ومن بعيد يتراءى لك الماعز يتسلق على أشجار أركان، ما يؤكد العلاقة الوطيدة بينهما وهي على كل حال علاقة طبيعية، إذ يغذي كل واحد الآخر بطريقته في سكينة كبيرة لا يكسر صمتها سوى تنقل أسراب الطيور من مكان لآخر، وكلاب مستلقية لا تهتم بما يتحرك من حولها، كأن الزمن متوقف في هذه المنطقة، فقط الجبال الشاهقة كأنها تحمل على كتفيها صخورا عتيدة في مواجهة مفتوحة مع الحرارة والبرودة، تتحدى المناخ بنوع من الكبرياء.

كان الطريق بالكاد يسمح بمرور مركبتين، كنت أقود السيارة لوحدي، أستمع لأغاني أم كلثوم تارة، وتارة أخرى أفكر في ماض قضيته بين هذه الأشجار، طفولة تعلمت منها عشق الطبيعة واللعب وسط الأحجار والأشجار. من مميزات مناخ هذه الجبال والسهول أنه رغم ارتفاع درجة الحرارة، فإن نسيما عليلا يمسح بنعومة على وجوهنا ليجف العرق المتصبب منا لكثرة حركتنا حين كنا صغارا كثيري اللعب، وبين الانغماس في الذاكرة ومحاولة الانتباه إلى الطريق ظلت صور الصبا وأجمل الذكريات تلوح من جديد في مخيلتي لا تقطعها إلا خطورة المنعرجات التي توجد على طريق "تالوين".

أسوق السيارة غير مدرك للفرق بين الأماكن والمواقع سوى بعلامات التشوير، تذكرك أنك ولجت تراب هذه الجماعة أو قد تجاوزت مجال تلك القرية، فكثير من القرى والجماعات تسمى بأسماء مخالفة لطبيعتها، فقرية «الفيض» مثلا تعاني قلة المياه ولا يفيض فيها إلا الجفاف، وتمر بجانبها وديان مختلفة الأسماء، مهجورة المياه، فقط أنابيب تقرصن ماء السد من أهله لتبيعه بعيدا.

توجد الطريق على هضبة شاهقة وفي الأسفل تظهر قرية لا نرى من منازلها المبنية جلها من تراب سوى السطوح، وبلمح البصر أفاجأ بسيدة بلغت من الكبر عتيا، جالسة على حجرة تتظلل بشجرة أركان أغصانها تلامس الأرض. تذكرتها، إنها هي نفسها وكيف يمكنني أن أنساها؟ سيدة كبيرة برؤيتها تثير دائما عطفي،

لأنها ببساطة جزء من طفولتي وحاضرة في عنفواني، جيلي كله يعرفها، إنها (الحاجة لالة يطو). (الحاجة لالة يطو) في مقام الأم التي نحترمها جميعا، فلكل أهل الجبل قصة معها، كيف لا والمرأة عايشت أكثر من أربعة أجيال، عمرها تجاوز المائة، نحيفة الجسم، غائرة العينين، بيدين صغيرتين يحملان سوارا من الفضة وعلى رأسها ثوب أحمر، وعلى أحد كتفيْها وخصرها رداء ثوب أسود مُثبَّت بخلاَّلتين على صدرها، كانت الشجرة تحتضنها كأنها تحميها من محيطها، وهي تضع ظهرها على جذع الشجرة لتمدها بالحياة.

كانت (الحاجة لالة يطو) جالسة تحدث نفسها، لا تهتم بضوضاء السيارات التي تسير في الطريق أمامها. أوقفت السيارة جانبا ونزلت أتدحرج من أعلى الهضبة إلى أسفلها حتى وقفت أمامها، وحين لم تقف للسلام عليَّ كعادتها، أدركت حينها أنها فقدت البصر كليا.

خاطبتها: السلام عليكم (لالة الحاجة).

أجابتني بالأمازيغية: عليكم السلام يا ولدي، ثم أردفت قائلة: خذ صخرة واجلس بالقرب مني، دون أن تسألني من أكون.

سلمتني قلة صغيرة قائلة: اشرب الماء، فالجو حار.

كانت القلة من لون التراب بها ماء زلل، ارتويت منها بعض الجرعات. وقبل أن أشكرها سألتني: من أنت؟ ومن أين أتيت؟

كنت مدركا أن بصرها يمنعها من التعرف عليّ، ولكني مدرك جيدا أنها تذكرني وتعرفني، وأجبتها أنا فلان ابن فلان.

استدارت نحوي ووضعت يدها على كتفي قائلة: ا أكبر، رحمة ا على أبيك. لقد كان من أهلي، كيف هي أمك؟ وهل مازالت تعاني من داء السكري؟ تواصلت أسئلتها بسرعة، أخبرتها بكل أخبار العائلة، وهي لا تكل أو تمل، تسألني عن إخوتي وعن أعمامي وعن تفاصيل عائلتي، مازالت ذاكرتها قوية لا يوازيها في شساعتها إلا قلبها الطيب.

قالت: "سمعت أنك مترشح للانتخابات؟ حسنا أنت ابن عائلتي وقبيلتي أفضل من الغريب 1".

قلت لها: « دعك من هذه الأمور. كيف هو حالك »؟

أمسكت بيدي وتنهدت قائلة: " ها أنت ترى، فلقد نسيتني الموت. لست أدري متى ستأتي لأستريح؟ ".

فوجئت بجوابها وسألتها: ماذا أتعبك وكل الناس في خدمتك؟

تنهدت مرة أخرى وقالت: «عندما يصبح المرء عالة على غيره يُصبح الموت رحمة من السماء، ثم إن كل أقراني رحلوا، فلماذا أبقى وحدي؟». وتنتقل (الحاجة لالة يطو) من موضوع إلى آخر، ومن ذاتها إلى غيرها.

قالت لي مبتسمة: "سمعت أنك تزوجت فاسية "

قلت لها وأنا أضحك: وهل ارتكبت خطأ؟

ردت: لا أبدا، فكلنا عبيد ا ولا فرق بين أمازيغية وفاسية.

ثم سألتني عن أبنائي وماذا يفعلون، وكم سنهم، وسألتني عن أحد أصدقاء أبي، وشرعت تحكي كيف جاء الاستعمار إلى المنطقة. وكيف كانت المقاومة. وكيف انتقل الناس للعمل خارج القرية وخارج المغرب. لاتزال تذكر الناس بأسمائهم كأن الموضوع جرى بالأمس القريب فقط. أنهت كلامها قائلة: " إن الأمور قد تغيرت اليوم كثيرا، وأصبح الناس لا يهتمون ببعضهم البعض، متسائلة ماذا يجدون في هذا الذي اسمه التلفزيون، لقد شغل الناس حتى عن الحرث والحصاد، لم يعودوا ينامون باكرا ليستيقظوا فجرا للعمل، يسهرون وهم يشاهدون التلفزيون حتى بعد منتصف الليل، إنه مضيعة للوقت !".

كانت تضحك وتقول: « كلما أهداني أحد جهاز تلفزيون أهديه إلى الجيران ». وحكت لي عن أول جهاز دخل القرية، وكيف كان الناس يطلقون عليه اسم "صندوق العجب ".

سألتها عن أشخاص وعن عائلات بعينها، فأخبرتني عن أسماء رحلت عن القرية، ووجوه أخرى لم تعد، وعن آخرين تزوجوا، وعن البعض ممن رحلوا إلى دار البقاء.

كل أبناء القرية في المداشر يعرفون (الحاجة لالة يطو)، فحينما كانت لها القدرة على الحركة كانت تقصد كل البيوت في معظم المداشر، إذ لا يوجد منزل يغلق في وجهها، تنتقل من مدشر إلى آخر لتسأل عن أهل القرية، تضع قطعة ثوب على رأسها وهي تتوكأ على عكازها وتسير، ما أن تلتقي أي شخص في الطريق حتى تسأله عن أخباره وأخبار أهله. النساء هنا يقبلن يديها والرجال يقبلون رأسها، يرافقونها بعض الخطوات وهم يتبادلون معها أطراف الحديث، ثم يودعونها، فهي سيدة الكل دون سيادة، هي سيدة بحب الناس وبالصبر والحلم.

رائحة الأركان.. لالة يطو: منة من الزمن الجميل ـالحلقة15

كان لـ(الحاجة لالة يطو) ولايزال مجموعة من الأدوار الاجتماعية المهمة التي راكمتها بأعمال الخير وبالحكمة والاستقامة وبالصدق مع الناس وبالتعفف. إذ لاتزال ملاذ الشباب لتتدخل عند أسرهم من أجل طلب ما، كما كانت ملجأ العائلات لإيجاد عروس أو عريس لأبنائها، فمعرفتها وقربها من الناس يسمح لها بالتدخل في الحياة الخاصة للعائلات، يعطيها هذا الشخص بعض النقود مساعدة لها، وما أن تقطع جزءاً من الطريق وتجد عائلة معوزة حتى تمدها بالمال نفسه، الذي حصلت عليه من غيرها، أما غذاؤها وكل زادها، فتعتبره في علم الغيب وأن الله لا ينسى عباده. كانت كما تقول لها قدرة كبيرة على اختراق البيوت والقلوب، لا تهتم بالزمن فلا قيمة للوقت لديها إذا لم يكن مقرونا بالإحسان والسؤال عن الناس.

تحضر (الحاجة لالة يطو) جميع الأعراس وجميع المناسبات من غير أن تُدعى إلى ذلك، بل مكانتها مهمة وشرف كبير أن تحضر في أي مناسبة اجتماعية، تسمي أطفالا ولدوا وتحضر حفلات عقيقتهم بشكل تلقائي، وليس غريبا أن تكون قد حضرت عقيقة آبائهم، كذلك.

حتى التواريخ عند (الحاجة لالة يطو) مرتبطة بالأحداث، تحدثك بأن هذا الشخص ولد عندما وقع كذا، أو هذه السيدة ازدادت عندما مات فلان، وذاك توفي بعد سنة أو سنتين من هذا الحدث، كان كل حديثها مع الناس هو السؤال عن أحوالهم وقضاء حوائجهم، لم تكن «النميمة» أبدا من أخلاقها ولا تعرف للسانها طريقا، تدعو الله أن يمنَّ على الناس بالمطر، وهي التي لا تملك أراضي فلاحية ولا أشجاراً، تسأل الناس عن آبائهم وعن أبنائهم وعن أحوالهم، تبكي لأحزانهم وتفرح لسعادتهم.

وعندما تجاوزت (الحاجة لالة يطو) المائة من العمر، فقدت البصر وعادت إلى بيتها القديم تجلس تحت شجرة الأركان، كل أهل المدشر في خدمتها، ترفض الصدقات ولا تريد نقودا، فأهل القرية يمنحونها الطعام، ونساء المدشر يقمن بباقي الخدمات بما فيها مصاحبتها إلى الحمَّام، حريصة على أداء فرائضها الدينية في وقتها، وبين وقت العصر والمغرب تكون مختلية بنفسها على جانب الطريق تحت ظل شجرة الأركان.

عندما تسألها: ماذا تنتظرين؟

تجيب بسخرية ممزوجة بابتسامة: بطبيعة الحال الرحيل عن هذه الدنيا الفانية.

(الحاجة لالة يطو) تعتبر نفسها نالت نصيبها الكامل من الدنيا، ومن الإنصاف التعجيل برحيلها.

مثل هذه الوجوه وهؤلاء الناس لم يعد لمثيلهم وجود بيننا، فكل منا متمسك اليوم بالحياة أكثر، إما من أجل مال أو منصب أو مصلحة أو من أجل فتات الوجود.

حدثتني (الحاجة لالة يطو) طويلا عن المرشحين الذين مروا في حياتها أغلبهم غادر هذه الدنيا، كلمتني، كذلك، عن الملك محمد الخامس وعن زيارة الملك الحسن الثاني للمنطقة، بل أكدت لي أنه حينما حضر الملك محمد السادس إلى «تالوين» كانت واقفة بين الحضور، لم تستطع أن تراه لأن بصرها ضعيف لكنها سمعت الناس تهتف باسمه وتدعو له بطول عُمْره حين كانت سيارات الموكب تمر من أمامها.

شعرتُ بعد لحظة أنني أنهكتها وبدأت الشمس تختفي وراء الجبل. لقد حان وقت دخولها إلى البيت.

سألتني مجاملة: ألا تريد أن تقضي الليل في بيتي؟

كان يصعُب عليّ أن أعتذر، لكن التزاماتي كثيرة، أخبرتها بلباقة أنني في اتجاه نحو موعد مهم، وقفت ممسكا بيدها والقلة بيدي اليسرى. في حقيقة الأمر كانت هي التي تدلني على الطريق، فربما كنت أملك البصر، ولكنها هي لاتزال تملك البصيرة.

وصلت (الحاجة لالة يطو) إلى بيتها، قبّلتُ رأسها مودّعًا، فطلبت مني أن أنتظرها عند الباب، بعدما اعتذرت لها عن الدخول، اختفت وعادت بعد لحظات وفي يدها زجاجة صغيرة من زيت الأركان، خذ يا بني وتناوله في فطورك كل صباح إنه مفيد للصحة، ولا تَنْسَ بلدتك عندما تنجح في الانتخابات. أخرجت من جيبي بعض النقود، ربما، تكون في حاجة إليها، وضعتها في يدها، ضحكت وقالت: هل هذه نقود؟

أجبتها: نعم.

ردت: ماذا سأفعل بها.

قلت لها هذه هدية مني إليك.

قالت: انتظر قليلا، ثم نادت على سيدة من جيرانها، نزلت امرأة اسمها «زينة» سألتها: هل تعرفين هذا الرجل؟

أجابت: نعم، إنه المرشح ابن الحاج.

سألتها: هل اشتريت الدواء لطفلتك المريضة؟

أجابتها: لا، لم يعد زوجي بعد من السوق، أخذت النقود التي وضعتها في يدها وقالت لها اشتري بها الدواء واشكري ابن الحاج، فإنه هو من منحك هذا المبلغ.

شكرتني المرأة بقوة ثم قالت لها (الحاجة لالة يطو)، اذهبي واهتمي بابنتك المريضة.

توجهت إليها طالبا أن تدعو لي قالت: "الله يرضي عليك ويبعد أولاد الحرام من طريقك".

استدارت وقالت: أنا أيضا احتاج إلى دعواتك؟

كيف. وأنت من أهل الدعاء والبركة؟

قالت: "أدعُ لي بأن يلقاني ربي في أقرب وقت، وهو راض عني"

نزلت الهضبة والدموع تغالبني، ألم أقل لكم إن مثل هذه الكائنات الاستثنائية انقرضت من الوجود.

بعد شهر ونحن في حفل عقيقة لأحد أبناء القرية يقطن بالدار البيضاء، سألت الجمع الذي كان يضم عدداً من أبناء منطقتي وأصولي عن أحوال (الحاجة لالة يطو)، فأخبروني بأنها انتقلت إلى عفو الله. ألم تكن تلك هي أمنيتها الوحيدة والأخيرة. رحم الله امرأة بسيطة لم تفعل إلا الخير في هذا العالم الذي زهدت فيه.

رائحة الأركان.. الحاج احماد: لم الديني بالسياسي!

29مايو 2019

بمناسبة هذه الانتخابات، غالبا ما تجد (الحاج احماد) يتحرك في كل الواجهات والاتجاهات، يعرف من يؤثر في الأشخاص فيتصل بهم، ويدرك بحدسه الأشخاص الذين يجب أن تعتمد عليهم في الانتخابات، فيدعو إلى اللقاء بي، وحينما نتحرك في الدائرة الانتخابية لنقصد مكاناً ما، يتصل بشخص يقطن هناك، لا يطلب منه، بل يدعوه إلى إعداد وجبة غداء أو عشاء لإكرام الحضور، يستجيب الشخص دون تردد، ويدعو أناساً آخرين إلى مشاركتي الضيافة، وذلك اللقاء.

يتحرك في هذا المدشر أو ذاك، يعرف الخلافات التي بين القبائل وينصح العائلات ويذكرها بأحكام القرآن الكريم والتاريخ المشترك، ما إن يبدأ حديثه بالدين حتى يعرج على السياسة، ثم يعود إلى الدين مرة أخرى، فهو يعتبر أن الأخلاق التي تربينا عليها مصدرها الدين الإسلامي وهي ملزمة لجميع المرشحين، يكلمهم بحقيقة وضعهم، لا يرد طلبا ولا يمنع سائلا، فممارسته (الحاج احماد) للسياسة تستند على الصدق والأخلاق والقيم الإنسانية الرائعة ويدعو الجميع إلى التضامن والتآزر والتعاون على فعل الخيرات، فهو لا يرى في السياسة مستنقعا، بل كل الخير، أو كما يقول: « ما قيمة السلطة إن لم تفعل بها الخير للناس ». (الحاج احماد) لا يقوم أبدا بحملة انتخابية من أجل نتيجة النجاح وضمان مقعد برلماني، فالنتيجة لا تهمه ولا ينزعج مطلقا لطبيعتها، يرى أن الواجب هو القيام بالحملة الانتخابية في حد ذاتها وحث الناس على المشاركة وتحسيسهم بالاهتمام بمصالح الوطن العليا وأهمية نعمة استقراره وخيراته الفلاحية. وأما النتيجة، فكما يقول: «شؤونها يرسمها الخالق»، وفي جميع الأحوال هي الخير الذي يريده الله لنا أكانت فوزا أو خسارة، ومهما كانت النتيجة، فهو يعتبرها خيرا من الله. المهم، كما يقول، هو نجاح الوطن في تنظيم الانتخابات والاستقرار.

كنت أقول له مبتسما أنت أول من يخلط التربية الوطنية بالتربية الإسلامية، يرى في الانتخابات فرصة اللقاء بالناس والحديث معهم. ثم إنه في كثير من الأحيان تجده يكلم هذا الشخص بكلام خافت، وهو ينصت باهتمام، وما أن ينهي المتحدث كلامه حتى يهاتف (الحاج احماد) هذا أو ذاك، ليبدأ في البحث عن حل وتقديم مساعدة في الموضوع. يستيقظ (الحاج احماد) عند آذان الفجر ولا ينام إلا ساعات بعد صلاة العشاء، لا يكل ولا يمل، يتحرك بسيارته في كل جهة سوس، بل في المغرب عموما، وقد يتصل بالشمال لدعم مرشح يعرفه

هناك، كما يتصل بصديق له لدعم مرشح في مراكش أو في غيرها، وقد يوصي عائلة هناك في الشرق لدعم هذا المرشح، وبعائلة أخرى يعرفها هناك بالدار البيضاء لدعم ذاك.

(الحاج احماد) لا يخفي انتماءه السياسي، بل هو في حد ذاته حزب يمشي على قدميه، وطنيٌّ حتى النخاع، وهي المسألة التي لا يقبل فيها أي نقاش، بل يصبح فيها متشددا، ولا يتردد في القول: "إن الآخرين ينتصرون علينا عندما يكونون أحسن أخلاقا منا ".

نظرة (الحاج احماد) إلى النُّخب ودورها مختلفة، فهو ببساطته المعتادة يقلب معادلتك للأشياء. ففي رأيه من يحافظ على استقرار المغرب ليس هو من رفض المشاركة في الربيع العربي حين هب على المغرب، ولكنه الفلاح البسيط الذي يجتهد ويكد ويرسل منتجاته من الخضروات واللحوم إلى المواطن نحو أقرب سوق وبثمن بخس، إلى السواعد التي تنتج الخبز وتوفره بكثرة وبثمن زهيد، إلى من لايزال يحتفظ بضميره ويساهم في علاج البسطاء في المستشفيات العمومية، إلى من يتحمل قهر الطبيعة والجغرافيا ليعلّم بتفان أبناء وبنات الفقراء في الجبال والمداشر، وكل مسؤول يشتغل بضمير حي وتواضع مع البسطاء، هؤلاء هم ركائز استقرار الأوضاع في المغرب، وليس من يزايد على بلدنا بالربيع؛ يردد ذلك ويعلنُه أمام الجميع.

جاء من الدين إلى السياسة، ولكنه لم يفقد أخلاق الدين ولم تُنجّسه السياسة. صعب أن تكون لك قدرته في إدارة الموضوعين وبطريقة السهل الممتنع، يعرف كيف يجيب عن السياسة بالدين ولا يجعل هذا الأخير في خدمة السياسة، بل يعتبر الأخلاق الدينية والسياسية يسيران في نسق واحد، كان يقول: " لا يمكنك أن تنجح في السياسة إذا لم تحترم القواعد الأخلاقية التي يوفرها الدين ".

(الحاج احماد) يسهر على ختم كل اجتماع سواء أكان طويلا أو قصيرا، كبيرا أو صغيرا، بالدعاء للجميع. يسير في الطريق بحماسة، لكن لا يتنازل عن وقت الصلاة، فحين يحين وقتها يوقف كوكبة الحملة الانتخابية لأداء واجبه الديني، ولا يجد في ذلك أي حرج. يعتبر النتيجة الانتخابية قَدَراً من الله، وأن وراءها حكمة لا يعرفها إلا الله، لذلك ينام مرتاحا كيفما كانت النتائج، وقبل أن يودعك يحمل هاتفه القديم ومفتاح سيارته قائلا: «لا تحزن، لكن المهم هو أن الوطن آمِن وبخير، والحمد لله على نعمة الأمن والأمان»، كما كان يختم دائما كلامه.

رائحة الأركان.. الحاج احماد: لم الديني بالسياسي! -الحلقة 17

28مايو 2019

يبدو أن الناس جميعا بتارودانت وسوس يعرفون (الحاج احماد). رجل من أبرز وجوه العمل الخيري بجهة سوس، شيخ وقور، يتسم بنحافة البنية، كثير النشاط، كثيف التحركات، يتميز بخفة دمه وابتساماته المعهودة فيه دائما، تجعله شابا مليئا بالحيوية رغم أنه تجاوز الستينيات من عمره.

ما أن يسلم عليك (الحاج احماد) حتى يبدأ هاتفه يرن كأن شركة الاتصالات لا تشتغل إلا لفائدته، وحينما تكون بجانبه في الشارع عليك أن تسلم على جميع الناس كهولا وشبابا، ويبدو أن الناس في سوس يعرفونه كلهم صغيرهم وكبيرهم.

لا تجد (الحاج احماد) إلا لابسا جلبابه الأبيض، يمسك هاتفه المحمول من النوع القديم بيده اليسرى، ذاكرته قوية، وقدرته خارقة في حفظ أرقام معارفه. في كثير من الأحيان يطلب منك الاتصال بشخص معين ليس بالبحث عن اسمه المسجل، كما هي العادة في لائحة الأصدقاء على شريحة هاتفه، أو في ورقة مكتوبة، بل يسرد عليك رقمه الكامل الذي يمليه عليك حرفيا من ذاكرته.

وما أن يُعقد جمع معين ويحضره حتى يصبح (الحاج احماد) إماما له، ولا يخرج من هذا الاجتماع ليدخل آخر حتى يختم بدعاء للحاضرين وللبلد بالأمن والاستقرار. تجده دائما يتدخل لهذا لدى ذاك، يجمع المال من الناس للمساعدة في بناء هذا المسجد أو لمساعدة تلك المدرسة العتيقة أو لقرية تحتاج إلى بئر أو لشراء أنابيب الماء لتروي عطشها، وكما يقول "فكل المال هو مال لله ويجب أن يسخر في خدمة وقضاء حاجات عباد لله".

سيارته لا تترك مكاناً في سوس ولا في ربوع المغرب إلا ومرت على طرقاته، كأن التعب لا يعرف سبيلا إلى جسده. في أسبوع واحد تجده قد تنقل إلى هذه المدينة في أقصى شمال البلاد ليعزي ذلك الشخص، وفي اليوم الموالي يسافر إلى الريف ليهنئ هذا الشخص أو لمشاركة عائلة في فرح من أفراحها، وفي اليوم الذي بعده ينتقل إلى الجنوب ليعود مريضا أو يزور مدرسة عتيقة، فهو دائم السفر في السؤال عن أحوال الناس والأصدقاء والعائلة، يشاركهم أفراحهم وأتراحهم بمبادرة منه، فقط عليه أن يعلم بالخبر ليتحرك.

حينما ألتقي (الحاج احماد) أقول له مبتسما: «أنت أكبر زبون لشركة الطريق السيار»، فهو كثير السفر والتنقل من أجل فعل الخير بمختلف ربوع المغرب، يحدثك عن معالم المدن المغربية وقراها بتفاصيل وعن عادات الناس بها، وحينما يتعب ينام إما في السيارة أو يختار بيتا من بين بيوت أصدقائه الكثيرين، فكل البيوت بالمغرب مفتوحة في وجهه، ويسعدها استقبال (الحاج احماد).

(الحاج احماد) من طينة خاصة في أوائل الستينيات من عمره، اشتعل رأسه شيبا، له لحية خفيفة وجسم نحيف، يخفي رشاقته وراء جلبابه، رجل حافظ لكتاب الله، معرفته واسعة بأحاديث رسوله (صلعم)، جميل الرفقة، خفيف الظل، لا يثقل على الناس، يسعى دائما إلى مساعدتهم على حل مشاكلهم، والناس يساعدونه على تحقيق مبتغاه، ومن غريب الأطوار أنه لا يحتاج إلى مساعدة أي شخص، فهو نظيف الذمة، عفيف النفس، كريم السجية. عندما يهديه هذا الشخص هدية سرعان ما يتخلص منها بإهدائها لشخص آخر ولا يرى في ذلك عيبا، مادام الآخر في حاجة ماسة إليها.

كلام وحديث (الحاج احماد) لا يخلوان من آيات القرآن وحديث الرسول (صلعم)، يخلطهما ببعض من الابتسامات وخفة الدم، أو يمزجها بحكاية قصص صغيرة من الواقع أو روايات قريبة تسهل فهم الرسائل التي يريد تبليغها أو الحماسة التي يريد زرعها في الناس لفعل الخير بتواضع الكبار. وحينما يتشعب النقاش يجلس مستريحا على وسادة، غالبا ما يفترش الأرض ويتوسط الجماعة ببساطة الفقهاء وأهل الذكر.

وعندما دخل صيف انتخابات 2016 اتصل بي متسائلا بابتسامته المعهودة: هل ستترشح هذه المرة؟

أجبت: وما رأيك؟

رد عليّ ضاحكا: كفاك من المزاح فدائرتك محتاجة إليك.

(الحاج احماد) دائما بجانبي طوال فترة الانتخابات، يساندني في الجبال والسهول، لا يدق باب بيت في الجبل حتى يسأل عن أهله بالأسماء كأنه يعرفهم جميعا، يلح عليّ بأن أزور هذا الشخص أو ذاك، يقول: "للناس قدْرُهم وعندما تزورهم، تزدْ من قدْرك ومن قدْرهم"، لا يمر من مكان حتى يحدثك عن مدرسة عتيقة موجودة هنا أو هناك يعرف فقهاءها ومن يشرف عليها وكم عدد تلامذتها، فكل مدرسة عانت من عجز مال إلا وهرول (الحاج احماد) لإنقاذها قدر المستطاع، يكلم هذا الثري السوسي ورجل الأعمال ذاك في الموضوع، وطلبات (الحاج احماد) أوامر لا ترد، فهو لا يطلب لنفسه، ولكن فقط لغيره وأهل بلده في سوس وغيرها، ويعتبر ذلك من فضل الله، (الحاج احماد) لا يتردد أن يرفع صوته في الهاتف أو مع الناس عندما يرى أو يسمع ما يخالف شرع الله والأخلاق.

لا يدخل مكتبا من مكتب أي مسؤول محلي أو بالعاصمة الرباط إلا حاملا ملفاته، إما لأجل طريق أو مدرسة أو منفعة عامة. يحترمه كل المسؤولين، فالرجل من أهل الله كما يقولون، لا يرد على الشتائم ولا يضيع وقته في الكلام حول أعراض الناس، يردد دائما على مسامعي: «إن المدارس العتيقة تضم حفظة القرآن وسوس وبلادنا قائمة على ذلك، ورضا الله من ذلك»، (فالحاج احماد) ما سمعت يوما تدخل لدى شخص لمصلحة شخصية، يتدخل لصالح كل الناس إلا لذاته.

علاقة (الحاج احماد) بالسياسة ترسمها تلقائيته وبساطة طريقة حديثه التي تبقى أرقى من حديث السياسيين، يقول دائما إن الوطن أولى من كل شيء وإنه يجب أن ننتقد السياسة ونترك الناس، فالكل عبيد لله، ومن الجهل شتم الناس أو إهانتهم، يردد دائما: «ولا تنابزوا بالألقاب» و«لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم». تجرأت ذلك اليوم، إن لم أقل تجاوزت حدودي، وأنا أنتقد المترشحين الآخرين، وبعد الانتهاء من اللقاء همس في أذني قائلا: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»، نظرت إليه وقلت: هذا الرجل يريد تخليق الخطاب السياسي.

"رائحة أركان".. (الدالمزوار) في خدمة الناس -الحلقة18

تناولنا وجبة الغداء عند (الحاج أكرام)، وهو تاجر من مدينة الدار البيضاء المرتبط بقوة بقريته، حيث تأبى روحه أن تغادرها. وكعادته، فهو لا يستطيع أن يتأخر عن زيارة قريته التي ولد فيها لأكثر من شهر، والتي تتوسد قمة الجبال الأطلسية المطلة على تارودانت، وتُدعى هذه المنطقة (تيكوكة).

وأنت تغادر هذه القرية تمر بالقرب من نهر يكاد لا تنضب مياهه، هذه المنطقة خلابة المنظر تضم أراضي خصبة، تبدو من بعيد كلوحة فنية يغلب عليها الاخضرار، وتتناثر حولها بعض من أشجار النخيل، وعلى حافة الطريق يوجد نهر، تتجمع بالقرب من مياهه بعض النساء منهمكات في غسل الملابس، بينهن بعض الفتيات جد جميلات، يرفعن ملابسهن حتى لا تتبلل وهن يغسلن ثيابهم وبعض الأغطية، غير مكترثات بالمركبات التي تمر بجانبهن، تبدين وهن وسط النهر مثل عرائس البحر، بعضهن تنسدل شعورهن على جِباههن، وتزيد أشعة الشمس المنعكسة على الماء لتسطع على وجوههن، فيبدو بريق أعينهن أكثر إشراقا. ومن بعيد على الهضبة، يجلس جمعٌ من الشباب يراقبون تلك الفتيات في حياء، متخفين وراء بعض الشجيرات، وكل منهم له من يميل إليها في صمت. يتبادلون النظرات، لكن لا أحد يجرؤ على الحديث إلى إحداهن، يكتفون بالتعبير عن تعلقهم بهن، لكن في صمت.

كان حفل الغداء في بيت (الحاج أكرام) بحضرة بعض أبناء القرية، وبعدها تقدم أكواب الشاي بالزعفران مع بعض الحبّات من اللوز حلو المذاق، وإنْ صادفت بعض الحبات مرّة الطعم، فقد تأكله بدون تعليق. كان الحديث بين الجميع لا يتوقف فقط، عند الانتخابات والسياسة، بل يتعداه إلى الخوض في قضايا وأمور أخرى. وفي خضم الحديث تذكرنا أسماء وأشخاصًا من هنا وهناك، من الماضي والحاضر، فإن كانوا لازالوا على قيد الحياة يُدْعى لهم بالصحة والعافية وطول العمر، وإن رحلوا إلى دار البقاء يُدعى لهم بالرحمة والمغفرة.

وفجأة انتقلنا إلى الحديث عن شخصية يتذكرها الجميع، متسائلين عن وضعية أبنائها وأحوالهم. في حياتي لم أر شخصية مثل (الدالمزوار)، هذا الشخص له أفضال كثيرة على كل أسرة في الجبل توجد في مسلك غير معبد تخترقه الحُفَر والمطبّات، إذ أسدى للجميع مجموعة من الخدمات وقدم معروفاً، أو كما كان يقول هو دائما: " كل ذلك يا بني لوجه لله ".

ظل (الدالمزوار) يشتغل لعقود سائقا للحافلة الوحيدة التي كانت تربط بين تارودانت المدينة والجبل، فكل العائلات تعرف من يكون (الدالمزوار)، شخص أسمر اللون مكتنز البدن، متوسط القامة، يلبس باستمرار جلباباً أو قميصاً طويلاً إلى الكعبين، يضع في فمه غليوناً من النوع القديم، لا يفارق فمه، مدخنا تبغا رخيص الثمن. ظلت سياقة الحافلة مهنته لمدة تزيد عن أربعين سنة، فالحافلة قديمة مثل عمره، كانت من نوع (فولفو)، تنفرد في المدينة بشكلها القديم، محركها يوجد في المقدمة، وكان الكل يلاحظ بنوع من الاستغراب ذلك الانسجام الكبير بين هذه الحافلة العتيقة وسائقها (الدالمزوار).

في الحقيقة كان اسمه (المزوار)، ولكن الناس لشدة احترامهم له أضافوا إلى اسمه حرف «الدال»، وهو الاختزال لكلمة «دادا»، وتعني الأخ الأكبر، أو حتى معنى السيد الذي يتسيّد من شدة الاحترام.

كان (الدالمزوار) أمازيغيا، غير أن استقراره في تارودانت المدينة مكنه من إتقان العربية الدارجة، كذلك، يملك بيتين بحي الملاح بتارودانت الذي كان يسكنه عدد من الغاربة اليهود قبل رحيلهم من المغرب في أواسط ستينيات القرن الماضي (ق.20) بعدما باعوا عقاراتهم بأثمان زهيدة. (الدالمزوار) اشترى المنزلين من مهاجر يهودي بمبلغ 4000 درهم أدى المبلغ عنه والدي مقابل اقتطاع بسيط كل شهر من أجرته حتى أدى جزءاً كبيراً وتنازل والدي عن باقي المبلغ، كنت أداعبه وأقول له: «حصلتَ على ديْن بدون فوائد»! اكترى منزلا وأقام في البيت الثاني المكون من طابقين، منزل شاسع يعبر عن التراث المعماري اليهودي، حافظ عليه (الدالمزوار) دون أن يجد في ذلك أي خلاف مع انتمائه الديني كمسلم.

(الدالمزوار) طينة فريدة من الرجال، يعتبر العمل عبادة، ولذا يستيقظ يوميا في الثالثة صباحا وينام بشكل منتظم في الساعة العاشرة ليلا. تتوسط نهاره قيلولة في حدود ساعة يوميا. (فالدالمزوار) يشتغل لمدة الأسبوع كله، يعتبر العطلة مجرد مضيعة للوقت وهدر للزمن ويقوم بمهمته كسائق بشكل جدي، من خلالها يفك الحصار والعزلة عن المناطق الجبلية المحيطة بتارودانت طيلة أيام الأسبوع.

ففي الجنوب مثل باقي تراب المغرب تسمى الأسواق بيومها الأسبوعي الذي تنعقد فيه مقرونة باسم القرية أو الجماعة التي تحتضن فضاء السوق، فكان يوم الاثنين ينقل المسافرين نحو السوق الأسبوعية (اثنين إذا وكيلان)، ويوم الثلاثاء يقصد سوق (ثلاثاء أولوز)، وخلال يومي الأربعاء والخميس ينقل المواطنين نحو جماعة (حد إيمولاس)، أما يوم الجمعة فيقوم بنقل المسافرين إلى (تملوكت) مرتين في اليوم لكونها تقع في سفح الجبل وبالقرب من مدينة تارودانت، ويوم السبت يقصد سوق (سبت ركيتة)، ويوم الأحد يتسوق سوق (حد إيمولاس).

كانت هذه الأسواق مجالا مناسبا ووحيدا لبيع المنتجات الفلاحية وشرائها بنوع من المقايضة المقْنِعة بواسطة نقود قليلة، وكانت كذلك فرصة للقاء وتبادل الأخبار وخلق الشراكات وتبادل المنتجات وقضاء الحاجات الإدارية، فحتى بعض المصالح الخارجية للإدارات كانت تشتغل يوم السوق ولو صادف ذلك يوم عطلة، فـ«القايد» كان يشتغل بشكل عادي داخل القيادة يوم الأحد رغم أنه يوم عطلة، فمصادفة السوق لذلك اليوم يفرض على القائد الحضور لقضاء حوائج الناس، والعملية نفسها بالنسبة إلى رئيس الجماعة، وأما الدرك فموجود باستمرار.

إن للسوق مكانة اقتصادية واجتماعية مهمة جدا في حياة الناس، هنا في الجبل، هذه السوق التي تُقام دائما بساحة كبيرة وسط القرية، تعرف اصطفاف خيام عدة تركن وراءها سيارات كبيرة الحجم لنقل البضائع، وبداخلها سلع متنوعة. ونظرا إلى تحرك الناس والدواب والمركبات كان الغبار يتطاير في كل مكان ليستقر على وجوه الناس ورؤوسهم، فالسلع المعروضة للبيع تملأ المكان في غمرة ضجيج وصراخ الباعة الذين ينادون الناس لشراء بضائعهم.

رائحة الأركان.. (الدالمزوار) في خدمة الناس -الحلقة19

بجنبات السوق توجد بعض الدكاكين المبنية من التراب تهيئ الشاي والطاجين للمتسوقين، الذين يلجونها رغبة في لقاء الأصدقاء وتبادل الأخبار والأفكار. وبالقرب منها تصطف سيارات وشاحنات، وكذا حافلة (الدالمزوار) التي يقف وراءها مساعد السائق الذي لا يتوقف عن الحديث إلى الناس، يجيب عن أسئلتهم حول وقت الانطلاق أو ثمن نقل البضائع. وفي زحمة هذه الأشياء، يصل إلى أذنك صراخ شخص يركب دابة يُدعى (البراح)، معلنا بكل طاقته الصوتية تاريخ انعقاد موسم الوالي الصالح مثلا أو أي خبر عاجل (إداري أو اجتماعي أو ديني) للعموم. يقف الناس هُنَيْهةً لسماع الخبر، ثم ينصرفون غير مبالين، فهم منشغلون ويتحركون في عدة اتجاهات كأنهم يسابقون الزمن.

وأغلب هذه الدكاكين التي تبيع الطاجين، تعرض «الطواجن» بباب المقهى على الجمر المتقد في الكانون، بينما بداخل المقهى لا توجد طاولات ولا كراسي عالية كما هو الحال في المقاهي العصرية؛ فقط حصير وطاولات خشبية قصيرة للأكل. وبعد أكل الطاجين اللذيذ، يتمدد البعض منهم في قيلولة لبعض الدقائق. أما صاحب الدكان، فلا يهتم بهم، خصوصا وأن أغلب المتسوقين يأتون من الجبال المجاورة بعدما استيقظوا فجرا، يمشون لعدة ساعات للوصول إلى السوق، وهذه القيلولة تمنحهم بعض الراحة استعدادا للعودة.

وحين تمر بجانب هذه الدكاكين يواجهك أشخاص واقفين تحت مظلات فقدت لونها الأصلي بسبب ما طالها من غبار، ينادون من خلال مكبر الصوت، فيصدرون أصواتا مزعجة إما لخلل تقني في مكبر الصوت أو لكونه من النوع القديم، يعلنون عن بيع منتجات مختلفة (مبيدات لقتل الحشرات والفئران، وبذور وأدوية فلاحية...)، وعلى جانبهم أشخاص واقفون أمام طاولات صغيرة مصطفة عليها مجموعة من الأسنان البشرية، وعلى طرف الطاولة بعض أدوات العمل أهمها «الكُلّاب» لخلع الأسنان، فهو « طبيب أسنان » القرية بشكله التقليدي، قد يصادفك أن تجد شخصا فاتحا فاه وهو ينظر إلى السماء، وشخصًا آخر ممسكًا من الوراء بيديه و "الطبيب" يضع ركبته على صدر المريض في محاولة منه لخلع أحد الأضراس اللعينة دون اكتراث من المارة.

أما في الجانب الآخر من السوق، فتجد شخصاً يتجمع حوله الكثير من الأشخاص، بعضهم وقوفٌ وآخرون جلوس، يحاول أن يقنعهم بوجود مادة لعلاج جميع الأمراض من (بوزلوم)، وهو آلام الظهر، إلى مرض العيون، مرورا بحالات الإصابة العقلية أو النفسية أو العضوية؛ مادة دخلت بشكل أسطوري إلى ذاكرة الناس

تدعى (العنبر) يثبت الشخص صفاء وحقيقة منتجه بجميع الوسائل، فيختار أن يحمل بين يديه جلد ثعبان طويل يقنعك بأنه صاحب الفضل في اصطياده، ويحكي قصة طويلة عن مغامرته في ذلك، ثم يقوم بعرض المادة للبيع على شكل قطع مطوية في ورقة متسخة وهو يدعو للجميع بالشفاء العاجل، ويعتبر أن الأمراض التي تلحق بالناس ليس مصدرها سوى الحسد والعين!

وعلى مسافة قريبة، يجلس شخص آخر على كرسي حاملاً تحت إبطه كتابا قديما وبيده عصا طويلة، تارة يتحدث بالأمازيغية، وتارة أخرى بالعربية وهو يحكي قصصا وروايات، يبدأ بعلي بن أبي طالب ويعرج على عنترة بن شداد، الذي حمل سيفه مهاجما أعداءه وبضربة واحدة قتل الآلاف على الميْمَنة، وبضربة أخرى قتل الآلاف على الميسرة، أو ينتقل إلى قصة «سيف بن ذي يزن» وغيرها من السِّيَر الشعبية ينصت إليها المتحلقون بخشوع وشوق، فوجوههم تتغير بتغير طبيعة الوقائع، تراهم حزانى عندما يصاب البطل، ويضحكون عندما يسخر البطل من أعدائه. وبين كل لحظة سردية وأخرى، يتوقف الشخص عن حكاياته ويدعو الجميع إلى مساهمة مادية قليلة، إما لمساعدته على أداء ثمن الكراء أو على مصاعب وتكاليف الحياة، طالبا من الناس رفع أيديهم إلى السماء من أجل استجابة الدعاء لهذا الشخص أو ذاك، لأنه ساهم معه بدرهم أو بدرهمين. وعندما يجمع مبلغا ماليا يستمر في سرد روايته، معتمدا على قراءاته ومحفوظاته وبعض من اختلاقات خياله الخصب.

أما في وسط السوق، (على الجانب الآخر) فتجد بعض النساء يعرضن بعض المنتجات التقليدية الجميلة، ومنتجات أخرى سائلة كالعسل وزيت الأركان؛ ولأنهن نساء، فغالبا ما كن يجتمعن لوحدهن، فتجدهن مستقلات بالحديث بينهن ولا يتوقفن، إلا عند قدوم مُشترٍ يسأل عن ثمن بضاعة أوعن جودة السلعة. يظل السوق كل اليوم على حالته، تدب فيه الحياة من بزوغ الفجر حتى بعد صلاة العصر، قبل أن يبدأ المتسوقون في الانصراف، فجلهم يفضل السفر على ضوء النهار بين العصر والمغرب وحين يعود إلى بيته بالجبل، وقبل الغروب بقليل تبدأ المركبات في الرحيل متجهة إلى سوق آخر في منطقة أخرى، لتبدأ قصة جديدة مع الراوي نفسه.

أما (الدالمزوار)، فكان يتحرك في السوق كأنه سيد الموضع، يمشي مزهوا يسلم عليه هذا ويسأله ذاك، البعض منهم يسأله عن حاجة والبعض الآخر يؤكد عليه أنه سيركب معه الحافلة خلال رحلة العودة إلى المدينة، ويرجوه أن لا ينساه عند وقت السفر.

يتجه (الدالمزوار) إلى أحد المقاهي حيث توضع رهن إشارته مائدة خاصة، يجلس على حصير عليه « الهيضورة »، سجادة من جلد وصوف الخروف، ليتناول الطاجين ويقضي قيلولته، ثم يصلي العصر فيعود إلى حافلته ويجلس أمام المقود، ويضع أصبعه على منبه الحافلة، معلنا بذلك أن الحافلة ستنطلق. أهل

السوق والمتسوقون يعرفون أن (الدالمزوار) حينما يضغط على المنبه، فإنما ليُحدد بعض الدقائق قبل الانطلاقة، فتجد بعضهم يهرول للركوب في الحافلة، وبعضهم يسلم البضائع لوضعها على سطح الحافلة، وبنافذة الحافلة القريبة من (الدالمزوار) تجد بعض المتسوقين يتكلمون معه منتظرين دورهم، فالكل يكلمه في أذنه مباشرة، فهي طلبات وأسرار بينهم..

رائحة الأركان.. (الدالمزوار) في خدمة الناس ـالحلقة20

04يونيو 2019

(الدالمزوار) يعرف الغالبية من أهل القرى المحيطة بالسوق، وينسج معهم علاقات اجتماعية وطيدة، وكلهم كان يحمل رسائلهم البريدية إلى الأحبة والأقرباء داخل المغرب وخارجه قبل ثورة الهواتف المحمولة، ذلك أنه بعد عودته مساء إلى المدينة، يشتري لها طوابع البريد ويلصقها عليها قبل أن يضعها في صندوق البريد بمدينة تارودانت، وعندما تعود الأجوبة من الخارج لأهل الجبل، تتجه مباشرة إلى عنوان منزل (الدالمزوار) بحي الملاح في تارودانت، ويكتب على ظهر الظرف البريدي بالخط البارز اسم (الدالمزوار) وعنوانه، وفي أسفل الظرف تُكتب ملاحظة تُسلم الرسالة إلى فلان ابن فلان، وطبعا، لم يكن (الدالمزوار) يفتحها، بل كان يسلمها مباشرة إلى أصحابها.

وحتى المبالغ المالية والتحويلات التي تحول من أفراد الجالية بالخارج إلى أهاليهم بالجبل تُرسل باسم (الدالمزوار)، الذي يقوم بتسليمها إلى عائلة المرسل إليه بالجبل. كما ظل (الدالمزوار) يخدم حتى الإدارة العمومية، ليس المواطنين فقط من ساكنة الجبل، فحتى «القايد» بقيادته في الجبل كان يسلمه الوثائق الرسمية في ظرف مختوم ليبلغها لمقر العمالة بمدينة تارودانت، والشيء نفسه بالنسبة إلى الدرك الملكي. وعندما يقوم طبيب القرية بتسليم الوصفة الطبية، تسلمها عائلة المريض مع بعض النقود إلى (الدالمزوار) ليشتري الدواء بصيدلية تارودانت ويحمله معه في اليوم الموالي إلى عائلة المريض. وفي بعض الأحيان يتصل العمال المهاجرون بالخارج على رقم الهاتف الثابت الموجود بمرآب الحافلة بتارودانت كي يبلغوا الرجل خبرا، عليه أن ينقله شفويا إلى عائلاتهم بالجبل في اليوم الموالي.

وعندما تقرر إحدى العائلات بعث أحد أبنائها أو بناتها للدراسة في تارودانت كان الطفل يسلم لـ(الدالمزوار)، الذي يصطحبه إلى بيته إلى أن يسجله بمدرسته أو إدخاله إلى الداخلية سواء الإعدادية أو الثانوية ويبقى صلة وصل بين التلميذ في تارودانت وعائلته في الجبل، حتى أني رأيت أزواجا يطلبون منه مساعدة زوجاتهم ومرافقتهن في اتجاه بيت الأصهار بتارودانت المدينة. وما كان من (الدالمزوار) إلا أن يتكفل بمصاحبتهن وعيناه ونظراته لا ترتفع عن الأرض.

ما أن يعود (الدالمزوار) مساء إلى مدينة تارودانت نازلا من الجبل والقرى والمداشر، حتى يركب دراجته العادية ليتنقل بها بين أزقة تارودانت بحثا عن صيدلية أو مكتب البريد، أو منزل هذا التاجر أو ذاك، ليقضي أغراض الناس وحوائجهم أو يبلغ الأمانات إلى أهلها.

كنت أمزح معه قائلا له: «إنك حكومة تسير على قدمين». وفعلا هو مكلف بالصحة والتعليم والمهاجرين والبريد ومختلف الشؤون الاجتماعية. لم يكن (الدالمزوار) يطلب تعويضا مقابل كل ما يقوم به، وفي الوقت نفسه لا يرفض هدية من أحد قضى له حاجة. وحينما يتوصل بهدية نقدية كان يضعها في جيبه دون النظر إليها لكي لا يحرج صاحبها. وخلال المناسبات الدينية يتلقى (الدالمزوار) بعض الهدايا من أهل الجبل، فمثلا يتلقى الأكباش من الأسر هدية بمناسبة عيد الأضحى، وفي عيد المولد النبوي أو عيد الفطر يتلقى هدايا عبارة عن البيض البلدي والعسل وزيت الأركان، وفي الأيام العادية كان يتلقى خضراوات وفواكه موسمية اعترافا من الناس بدوره الكبير وأمانته، وإذا ألمت به وعكة صحية وتوقف عن العمل كأن مصيبة حلت بأهل القرى والمداشر جميعا، لأن مختلف الخدمات الاجتماعية تتوقف، أو لنقل كان الخيط الذي يربطهم بالمدينة ينقطع.

كان (الدالمزوار) دائما مدعواً إلى أفراح أهل الجبل وأتراحهم، يهنئ هذا، ويعزي ذاك ويواسي الآخر، يسأل عن أحوال هذا الشخص وعن أخبار عائلته، بل حتى عن النتيجة الدراسية لابن هذا وذاك، يعيش معهم ويقتحم حياتهم وهم لا يرون في ذلك عيبا، فهو منهم ييسر عليهم مشاق الحياة ويسهل لهم العلاقة مع متطلبات التمدن. كان فعلا حكومة تسير على قدميها!

وحينما يحضر حفلا أو مأتما يمنح لـ(الدالمزوار) أفضل مكان للجلوس، فالكل يتعلق به، يرحب به، والكل يجله ويعانقه، كما يقدره الجميع، فالرجل بلا نزوع إلى الطمع، بل أمين وكاتم أسرار الناس، كثير الضحك والمزاح، لا ينخرط في الحديث في أعراض الناس، كاتم لأسرارهم، ومحافظ على أعراضهم.

أما الحافلة التي كان يقودها فكانت هي كل وجوده، حينما يلحقها عطب يشعر (الدالمزوار) أن حياته ستتوقف، فهو الوحيد الذي يعرف عطبها ومصدر الخلل فيها، وغالبا هو من يصلحه بنفسه، رافضا أن يصلحها أي ميكانيكي آخر غيره؛ الحافلة حقا هي عزته وكبرياؤه.

(الدالمزوار) شخصية خدومة ومحبوبة من الجميع، يظل مبتسما في كل الأعياد كما في باقي الأيام، يظل خدوما خارج أنشطة الحافلة، يساعد الآخرين أيام العيد الكبير على سلخ الأضاحي، يصلح مجاري المياه في حالة حصلت فيضانات. كان (الدالمزوار) يملك من القدرة على استيعاب هموم الناس ومشاكلهم، مما لا

يوجد لدى غيره، يخدم الجميع ويحبه الجميع. رحم الله شخصية سبقت زمانها وخدمت الجميع، عاشت على غرار هدير الحافلة ورحلت في صمت.

رائحة الأركان.. (باكروم) العبق السوسي

يونيو 2019 05

لاتزال الأسوار التاريخية تحتضن تارودانت بأبوابها الكبيرة التي، ربما، لم تعد تكفي لتتنفس المدينة بسهولة، ما جعل مجلسها البلدي يعوضها بأبواب جديدة مختلفة عمّا خلفه السلف قصد تسهيل عملية مرور المركبات، ويبدو أن هذه الأخيرة قد انتصرت على التاريخ.

كذلك الضغط العمراني فجر بدوره الأسوار التي ظلت تواجه تمدده وتوسعه بعدما اختلطت البنايات التراثية القديمة بالجديدة، وكأن تارودانت بدأت تتخلى عن أصالتها تحت ضغط الإسمنت، فلا غرابة أن تتقاطع الأزقة العريقة بالشوارع الجديدة.

إضافة إلى أن الأراضي والساحات التي كانت شاسعة في السابق كالبساتين والحقول الخضراء داخل الأسوار، والتي يُحكى أنها كانت تشكل درعا لمواجهة الحصار الذي كان يُضرب على المدينة عبر التاريخ من طرف أعداء تختلف طبيعتهم ومواقفهم، فقد تحولت هذه الحقول اليوم، إلى بنايات مشيدة. وأما البساتين، فقد طردت كلها خارج أسوار المدينة، تارة على ضفة نهر، وتارة أخرى بجانب ساقية لا ينبض ماؤها.

حينما تكون في عز الحملة الانتخابية، وبشكل طبيعي، وأنت تحاول إقناع الناس بخطابك، تفكر في مستقبل مدينة تارودانت ومستقبل أبنائها، وبين حين وآخر تحملك الذاكرة إلى شخصيات لاتزال حاضرة بقوة في تاريخ هذه المدينة من علماء وقيادات وطنية، وشخصيات أخرى شعبية وبسيطة ملأت دنيا تارودانت وشغلت ناسها، ومنهم شخص كان يقطع المدينة من شمالها إلى جنوبها ماشيا، مبتسما يسلم على هذا التاجر وعلى ذاك الطفل، يحكي نكتة هنا وأخرى هناك، كثير الضحك والشغب الجميل، يردد هنا بعضا من قصائد الملحون وينقل هناك الكلام من هذا الشخص إلى ذاك على سبيل المزحة، فليس من شيمه النميمة، فقط المزاح من أجل صنع المقالب الساخرة. كان (باكروم) شخصاً بسيطاً وهادئاً. ثم منذ عرفته وهو شيخ بلغ من الكبر عتيا. وعندما كنت أمازحه كنت أقول له: إن فتيات تارودانت يعشقنك لخفة ظلك!

يرد علي بافتخار ممازحا: " لو خيروهن بيني وبينكم، أبناء جيل اليوم، لاختاروني، فأنتم جيل هذه المرحلة لا فحولة لكم "!

حكى لي مرة أنه لما كان طفلا في أوائل القرن العشرين، وكان يقف بقرب باب من أبواب أسوار تارودانت، (باب الخميس)، واستطرادا، فإن باب الخميس هذا يكرهه الرودانيون لأنه الطريق الذي يؤدي مباشرة إلى المقبرة، فقد تسأل عن شخص ويقول لك لقد نقلوه إلى (باب الخميس)، ويعني ذلك أنه انتقل إلى عفو ربه ودفنوه بمقبرة (باب الخميس)، وقد أصبحت دلالته على أن الآخرة حتمية، فكل الرودانيين سيمرون ذات يوم من تحته محمولين على آلة حدباء، أما نحن كأطفال فكنا نعشق الذهاب إلى (باب الخميس) لأنه الطريق المؤدي إلى ملعب الكرة لحضور مباراة اتحاد تارودانت. «فريق المدينة الذي يتحمس له الرودانيون، لكنه ظل دائما في صفوف الهواة»، إذ يبدو أن الفرنسيين كانوا قد بنوه بجانب ملاعب التنس التي لاتزال إلى يومنا هذا خارج أسوار باب الخميس، وفي الجانب الأيمن للباب بالمحاذاة مع السور كانت توجد ساحة كبيرة نتردد عليها كثيرا للعب الكرة قبل أن تتحول إلى سوق أسبوعي لبيع الخضروات وبعض الفواكه.

وإذن- عودا على بدء- يحكي (باكروم) أنه في باب الخميس هذا كان حاضرا قبل عقود حين تجمهر مجموعة من الأشخاص والشباب والأطفال لرؤية أول سيارة تدخل مدينة تارودانت من هذا الباب، وذلك خلال الأيام الأولى للاستعمار.

يقول (باكروم) إنه حينما قام الفرنسي الذي أحضرها بتشغيل محركها فر الجميع هاربين، كان (باكروم) يضحك وهو يقول إنهم كانوا يعتقدون بأن الجن يخرج منها!

ما يعرفه القليلون عن (باكروم) أنه لم يسبق له مطلقا أن غادر مدينة تارودانت، عاش طوال حياته داخل هذه المدينة ليسلم الروح فيها. فقد كان يعرفه كل الناس ويعرف الناس كلهم، ظل عالمه محدوداً بين أسوار هذه المدينة التاريخية العتيقة.

عندما أمازحه قائلا له: " يوجد العالم كله للناس وتوجد تارودانت لـ(باكروم) ".

يرد علي غير مبال: "وتكفيني "

كان يشتغل حارسا ليليا في إحدى المؤسسات الخيرية، يتقاضى بعض الدريهمات مقتنعا وقانعا نفسه بها، معتبرا أن هذه الوظيفة هي حياته، فبأجرته يكفل أسرته رغم أن (باكروم) كان بدون ضمان اجتماعي وبدون أي تعاقد أو تقاعد، وعليه أن يشتغل حتى الموت، فالتقاعد بالنسبة إليه هو الموت كما ظل يقول. وحين أخبره أحد المسؤولين أنه سيستغنى عنه سأله (باكروم) عن السبب؟

أجابه المسؤول: لقد بلغت من الكبر عتيا وأصبحت متعبا وغير قادر على العمل.

ابتسم (باكروم) وأجاب المسؤول: "مادامت زوجتي لم تخبرني بأنني تعبت، فهذا يعني أنه مازالت لي القدرة على العمل "!

كان يحكيها بسخرية كبيرة. وعلى إثر تدخل بعض وجهاء المدينة لدى هذا المسؤول، ظل (باكروم) في وظيفته التي تُختزل في مَهمَّة مفادها أن يصل إلى مقر عمله في الساعة السادسة مساء، وفي الثامنة مساء يصلي العشاء ويقفل الباب ويدخل حجرة صغيرة وينام. يستيقظ مع الفجر ليصلي ويفتح الباب، وفي السابعة صباحا يغادر مقر عمله.

أجالس (باكروم) بين آذان العصر والمغرب، نفترش الأرض بجانب الطريق، ليبدأ بإنشاد أغاني الملحون، أسأله عن أسرة ما من أهل تارودانت، فيسرد لي تفاصيل أصلها وفصلها، ذلك أن ذاكرته تحمل الكثير عن كل ما عايشه، غير أنه لم يسبق أن تحدث عن شخصٍ مّا بسوء، بل ينهي كلامه دائما بالترحم عليه.

يصف لك (باكروم) شكل تارودانت في العشرينيات من القرن الماضي وكيف تطورت، فهو لا يسألك مطلقا عن مدينة أكادير أو البيضاء أو الرباط وغيرها، فهذه المدن لا تهمه، فقط مدينة تارودانت. كان له مذياع صغير، «ترانزيستور»، يحمله في كل مكان. وكان (باكروم) هو آخر مواطن اشترى جهاز التلفاز في تارودانت، فقد ظل يتحدث عنه باحتقار ويعتبره مضيعة للوقت.

وما إن يمازح بعض المارة بمقالب لغوية خفيفة، حتى يهرول وهو رجل في التسعينيّات من عمره، ليمسكه أحد أصدقائه ضحايا مقالبه من جلبابه فينحني (باكروم) طالبا العفو، واضعا رأسه بين يديه، وسرعان ما يعانقه الممسك بتلابيبه ويصفح عنه. لقد كان شخصا محبوبا إلى حدٍّ كبير، لا يطلب صدقة ولا يتودد لأحد، يبتسم بنوع من السكينة، يثرثر في مواضيع متعددة وكأنه يستهلك الوقت..

"رائحة الأركان" .. إصدار "غير عادي" للبرلماني البامي عبد اللطيف وهبي

صدر للقيادي في الأصالة والمعاصرة عبداللطيف وهبي، كتاب جديد بعنوان "رائحة الأركان"، وهو مؤلف من الحجم المتوسط يحكي حياة عدة شخصيات رودانية طبعت مدينة تارودانت وسوس عامة، بفضل الخدمات المختلفة التي ظلت تقدمها للساكنة.

الكتاب الذي أصدره النائب البرلماني عن دائرة تارودانت الشمالية، مختلف هذه المرة عن باقي إصداراته السابقة، إذ يحكي تفاصيل الحياة الدقيقة لهذه الشخصيات البسيطة أو التي قال عنها وهبي: "ربما حين تكتب عن زعيم يعرفونه الناس، يقرؤون كلماتك وهم ينازعونك في شرعيتها من عدمه، في حقيقتها من تهافتها، ولكن أن تكتب على أشخاص عاديين بيننا، بسطاء في حياتهم، نجوم في أخلاقهم، فحتما ستجعل القارئ يتساءل: ولماذا سيفرض علينا كاتب هذه الكلمات حضور هذه الشخصيات؟ هل هو فعلا يفهمها؟ أم أنه يعيش فقط وهم الإلمام بتفاصيلها؟."

جزء آخر من الكتاب يروي بعض من تفاصيل الحملة الانتخابية التي كان يقوم بها عبداللطيف وهبي وراء الجبال وفي القرى والمداشر من عمق المغرب العميق، حيث الحوارات مع الشباب الغاضب هناك وراء الجبال، ومع مطالب النساء والرجال البسطاء، وعن العلاقات الإنسانية البريئة والبسيطة والمتينة وراء الجبال.

كما تطرق الكتاب في جزء آخر للتعايش الذي طبع سنوات ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن الماضي بمدينة تارودانت، من خلال تسليطه الضوء على جانب من حياة اليهود بتارودانت وبعض المسيحيين بالمدينة، الذين نسجوا علاقات إنسانية اجتماعية رائعة مع الساكنة، رغم اختلاف الدين الذي لم يكن يوما ما عائقا للتعايش بالاحترام والمحبة والتقدير والود المتبادل .

156ص

تاريخ النشر 2017

طوب بريس